

أصول الأرمن

من منظور حوري أورارتي



الباحث والمؤرخ أمير أبو حديد

أصول الأرمن من منظور حوري-أورارتي

دراسة في الاستمرارية السكانية والحضارية من الحوريين
إلى أرمينيا القديمة.

وسنتناول المحاور الآتية:

1- الجغرافيا التاريخية

بحيرة وان، جبل أرارات، أعالي دجلة والفرات،
نهر أراس، زاغروس والقوقاز الجنوبي.

2- الحوريون الأوائل

أصولهم، لغتهم، مدنهم، معتقداتهم وانتشارهم في
أوركيش وميتاني وشمال بلاد الرافدين والهضبة
الأرمنية.

3- الحوريون والمرتفعات الأرمنية

دراسة الأدلة الأثرية وأسماء المدن والجبال والأنهار
ذات الجذور الحورية.

4- شعوب نايري

القبائل والممالك الجبلية التي سبقت أورارتو،
وعلاقتها بالمجتمع الحوري القديم.

5- قيام مملكة أورارتو

نشأتها حول بحيرة وان، عاصمتها توشبا، وحدودها
ونظامها السياسي والعسكري.

6-ملوك أورارتو

أرامو، ساردوري الأول، إشبويني، مينوا، أرغيشتي الأول، ساردوري الثاني، روسا الأول وملوك المرحلة الأخيرة.

7-لغة أورارتو وصلتها بالهورية

التشابه اللغوي بين اللغتين، والأسماء الملكية والإلهية والمصطلحات المشتركة.

8-الديانة الحورية-الأورارتية

تشوب، خبات، شاوشكا، خالدي، تيشيبا وشيفيني، وانتقال المعتقدات داخل المنطقة.

9-الآثار والفنون

القلاع والمعابد والقنوات المائية والتماثيل والأسود البرونزية والأختام والنقوش المسمارية.

10-سقوط أورارتو والتحول السياسي

الميديون والسكيثيون والقوى المجاورة، وما حدث للسكان بعد انهيار المملكة.

11-ظهور اسم أرمينيا

أول ورود للاسم في نقش بيستون، والتمييز بين ظهور الاسم السياسي ووجود السكان الأقدم.

12-تكوّن اللغة والهوية الأرمنية

كيف تبلورت اللغة الأرمنية مع بقاء القاعدة السكانية والثقافية الحورية-الأورارتية.

13-أرمينيا في العصور الأخمينية والهلنستية

الأسرة الأورونتية، ثم أرتاشيس الأول وتأسيس الدولة الأرمنية الكبرى.

14-تيگران الكبير

توسع المملكة الأرمنية وصراعها مع روما والفرثيين.

15-المسيحية وبداية المرحلة الأرمنية الجديدة

اعتناق المسيحية، ظهور الأبجدية الأرمنية، وإعادة صياغة الذاكرة التاريخية.

16الخلاصة

المقدمة:

أنطلق في هذا الكتاب من قناعة تاريخية تكونت لدي بعد النظر في جغرافية الهضبة الأرمنية وفي تاريخ الشعوب التي سكنتها منذ العصور القديمة

أرى أن الشعب الأرمني القديم والشعب الحوري يمثلان في جذورهما السكانية والحضارية شعبا

واحدا عاش فوق أرض واحدة وشارك في صنع
تاريخ واحد قبل أن تتغير أسماء الممالك واللغات
السياسية والهويات عبر العصور

إن ظهور اسم أرمينيا في المصادر القديمة لا يعني
أن تاريخ الشعب الأرمني بدأ في اللحظة التي ظهر
فيها هذا الاسم

فالشعوب أقدم من أسمائها السياسية وأقدم من الحدود
التي رسمتها الإمبراطوريات وأقدم من التسميات
التي استخدمها الملوك والكتبة والجغرافيون

ولهذا أبحث عن أصول الأرمن في الشعوب التي
عاشت قبل ظهور اسم أرمينيا داخل الهضبة نفسها
وأجد الحوريين في مقدمة هذه الشعوب

انتشر الحوريون في شمال بلاد الرافدين وأعلى
دجلة والفرات والمناطق الممتدة نحو بحيرة وان
والمرتفعات المحيطة بها

وأقاموا الممالك والمدن وتركوا اللغات والأسماء
والآلهة والطقوس والفنون التي أصبحت جزءا من
الذاكرة الحضارية للمنطقة

وعندما ظهرت ممالك نايري ثم قامت أورارتو لم
تبدأ الحياة البشرية والحضارية من جديد
بل دخل السكان القدماء مرحلة سياسية جديدة أكثر
تنظيماً وقوة

أرى أن أورارتو لم تكن حضارة منفصلة عن العالم
الهوري

فاللغة الأورارتية ترتبط باللغة الحورية ارتباطاً وثيقاً
وتشكل اللغتان فرعاً لغوياً واحداً معروفاً في
الدراسات الحديثة باسم الحوري الأورارتي
كما تكشف الديانة والعمارة العسكرية والمنشآت
المائية والفنون المعدنية وأسماء الأماكن عن
استمرار عناصر قديمة داخل الدولة الأورارتية
ومن هنا أتعامل مع أورارتو بوصفها وريثة العالم
الهوري في المرتفعات والجسر الذي انتقل عبره
جانب كبير من ذلك الإرث إلى أرمينيا القديمة
لم يؤد سقوط الدولة الأورارتية إلى اختفاء سكانها
فالدول تسقط ولكن الشعوب لا تتبخر

تتغير السلطة وتتبدل اللغة الرسمية وتدخل جماعات
جديدة وتظهر أسماء سياسية مختلفة بينما تبقى
غالبية السكان مرتبطة بأرضها وقراها ومدنها
وذاكرتها

ومن هذه القاعدة أنطلق لفهم ظهور الأرمن في
الجغرافيا نفسها التي عاشت فيها المجتمعات
الحرورية والأورارتية
لا أنكر أن اللغة الأرمنية تنتمي إلى الأسرة الهندية
الأوروبية وأنها تختلف عن الحرورية والأورارتية
لكنني لا أتعامل مع اختلاف اللغة بوصفه دليلاً كافياً
على اختفاء شعب كامل وظهور شعب آخر مكانه
فاللغة قد تنتشر وتتغير نتيجة السلطة والزواج
والهجرة والتجارة والتحويلات الاجتماعية من دون
أن يتغير جميع السكان
ولهذا أميز بين تاريخ اللغة وتاريخ السكان
وأرى أن تكوين الشعب الأرمني كان نتيجة تطور
داخلي طويل شاركت فيه القاعدة الحرورية

الأورارتية القديمة إلى جانب التأثيرات اللغوية
والسكانية التي دخلت المنطقة لاحقاً
إنني لا أبحث عن فصل الأرمن عن ماضي المنطقة
بل عن إعادتهم إلى عمقهم التاريخي
فالأرمن القدماء في رؤيتي ليسوا شعباً ظهر فجأة
فوق أنقاض أورارتو
وهم ليسوا جماعة بلا جذور سابقة في الهضبة
إنهم امتداد سكاني وحضاري لجانب أساسي من
سكانها الحوريين والأورارتيين مع ما طرأ عليهم
من تحولات لغوية وسياسية وثقافية خلال قرون
طويلة

سأبحث في هذا الكتاب جغرافية الحوريين وممالكهم
ثم أنتقل إلى نايري وأورارتو وملوكها ولغتها
وديانها وآثارها
وسأنتبع ما بقي من ذلك الإرث في أرمينيا القديمة
من أسماء الأماكن والمعتقدات والفنون والعمارة
والذاكرة الشعبية

كما سأدرس ظهور اسم أرمنيا والتحويلات التي
رافقت تكوين اللغة والهوية الأرمنية
وسأفصل بين ما تثبته النصوص والآثار وبين ما
أقدمه من تفسير تاريخي خاص بي
إن خلاصة رؤيتي واضحة
الشعب الأرمني القديم والهوري ليسا شعبين غريبين
أحدهما عن الآخر
إنهما مرحلتان من تاريخ سكاني وحضاري عميق
تشكل فوق الأرض نفسها
وكانت أورارتو الحلقة الكبرى التي ربطت العالم
الهوري بأرمنيا القديمة
ومن هذه الرؤية أبدأ رحلتي في البحث عن أصول
الأرمن من منظور حوري أورارتي
ترتكز المقدمة على الحقيقة اللغوية المثبتة بأن
الهورية والأورارتية لغتان مترابطتان بينما الأرمنية
لغة هندية أوروبية مستقلة كما توضحه دراسات
جامعة كامبريدج عن العصر البرونزي في القوقاز
ودراستها عن التنوع اللغوي في القوقاز أما القول
بالاستمرارية السكانية من الهوريين والأورارتيين

إلى الأرمن فهو الأطروحة التي سأختبرها وأدافع
عنها خلال فصول الكتاب

الفصل الأول

الجغرافيا التاريخية

أبدأ بحثي من الأرض لأنني أرى أن فهم أصول
الشعوب لا يبدأ من الأسماء وحدها بل من الجغرافيا
التي احتضنت السكان وحفظت آثارهم وذاكرتهم
عبر العصور

إن المنطقة التي عرفت لاحقا باسم الهضبة الأرمنية
لم تكن أرضا معزولة عن شمال بلاد الرافدين أو
عن زاغروس والأناضول والقوقاز

كانت هذه الهضبة قلبا جبليا واسعا تتقاطع فيه
الطرق والأنهار والمراعي والممرات الطبيعية

امتدت بين بحيرة وان وبحيرة أورميا وبحيرة سيفان
ووصلت غربا نحو أعالي الفرات وجنوبا نحو أعالي
دجلة وشرقا نحو زاغروس وشمالا نحو نهر أراس
والقوقاز الجنوبي

أستخدم تسمية الهضبة الأرمنية بمعناها الجغرافي
المعروف في الدراسات التاريخية الحديثة

ولا أعني أن هذه الأرض حملت اسما قوميا واحدا
في جميع العصور

فقد عرفت مناطقها بأسماء متعددة واستخدمت
النصوص القديمة تسميات مثل حوري وميتاني
ونائيري وأورارتو وبيانيلي ثم أرمينيا

إن تغير اسم الأرض في المصادر لا يعني أن
سكانها كانوا يختفون في كل مرة ويحل مكانهم
شعب جديد

بحيرة وان

احتلت بحيرة وان موقعا مركزيا في تاريخ المنطقة
فقد أحاطت بها المرتفعات الخصبة والممرات
المؤدية إلى أعالي دجلة والفرات وأورميا وأراس
وعلى صخرتها قامت توشبا التي أصبحت عاصمة
مملكة أورارتو

ومن هذه المنطقة تمكن الملوك الأورارتيون من
إدارة شبكة واسعة من القلاع والطرق والمخازن
والمنشآت المائية

أرى أن اختيار بحيرة وان مركزا للدولة لم يكن
مصادفة

فالموقع كان حلقة اتصال بين العالم الحوري في الجنوب والمرتفعات في الشمال والشرق وقد قامت أورارتو في مركز جغرافي كان مرتبطا منذ زمن طويل بالمجتمعات الحورية وشعوب نايري

وتؤكد الدراسات أن مركز أورارتو كان في المساحة الواقعة بين بحيرات وان وأورميا وسيفان وأن حدودها امتدت عبر مناطق تقع اليوم داخل تركيا وإيران والعراق وأرمينيا موسوعة إيرانیکا عن أورارتو

بحيرة أورميا وزاغروس

تمثل المنطقة الممتدة من بحيرة أورميا إلى سفوح زاغروس جزءا أساسيا من المجال التاريخي الذي أدرسه

فقد كانت ممرا بين المرتفعات والسهول وبين المجتمعات الزراعية والجبلية

ووصل الحضور الحوري إلى مناطق تقع قرب
بحيرة أورميا كما ارتبطت المنطقة لاحقاً بممالك
وقوى مثل ماننا وأورارتو

لم تكن الحدود بين هذه المجتمعات خطوطاً ثابتة كما
نعرفها اليوم

كانت مناطق النفوذ تتوسع وتراجع وكانت القبائل
والجماعات تنتقل وتتبادل التجارة والثقافة واللغة

ولهذا لا أفصل بين زاغروس والهضبة الأرمنية
فصلاً قاطعاً

إنهما جزءان من عالم جبلي متصل شاركت شعوبه
في صناعة تاريخ شمال بلاد الرافدين والأناضول
الشرقي

بحيرة سيفان ووادي أراس

شكلت بحيرة سيفان ووادي نهر أراس المجال
الشمالي والشرقي للتوسع الأورارتي

وقد أقيمت في هذه المنطقة القلاع والمراكز الإدارية
والاقتصادية التي ربطت المرتفعات الشمالية بمركز
الدولة عند بحيرة وان

وفي هذا المجال تأسست مدينة إريبوني في عهد
الملك أرغيشتي الأول خلال القرن الثامن قبل
الميلاد

وأصبحت مركزا عسكريا واقتصاديا مهما

إن وجود إريبوني داخل جغرافية أرمينيا الحالية يقدم
مثالا واضحا على تداخل الطبقات التاريخية

فالمدينة أورارتية من حيث تأسيسها السياسي
والنقوش التي وثقتها ثم أصبحت جزءا من التاريخ
اللاحق لأرمينيا

وهذا التداخل هو أحد الأدلة التي ساعتمد عليها في
دراسة الاستمرارية بين أورارتو وأرمينيا القديمة
موسوعة إيرانيكا عن إريبوني ويريفان

أعالي دجلة والفرات

لا أستطيع دراسة أصول الأرمن من منظور حوري
أورارتي من دون العودة إلى أعالي دجلة والفرات

فهذه المنطقة كانت جسرا بين شمال بلاد الرافدين
والمرتفعات الشمالية

وانتشرت فيها التجمعات الحورية وظهرت فيها مدن
وممالك تأثرت بالحضارة الحورية أو شاركت في
بنائها

ومنها تحركت التأثيرات السياسية والدينية واللغوية
نحو مناطق واسعة من الأناضول وسوريا
والمرتفعات

كان نهر الفرات ممرا للتجارة والحملات العسكرية
وانتقال الأفكار

أما أعالي دجلة فربطت مناطق مثل طور عابدين
وديار بكر والجزيرة الشمالية بالمناطق الواقعة حول
بحيرة وان

ولذلك أتعامل مع شمال بلاد الرافدين والهضبة
الأرمنية باعتبارهما مجالين متصلين لا عالمين
منفصلين

لقد شكلت جبال طوروس حاجزا طبيعيا بين سهول
بلاد الرافدين والمرتفعات الشمالية لكنها لم تكن
حاجزا يمنع الاتصال

كانت الممرات الجبلية تسمح بانتقال الجيوش
والتجار والرعاة والسكان

وتكشف الحملات الآشورية نحو بلاد نايري
وأورارتو مقدار الصعوبة التي واجهتها القوى
القادمة من الجنوب عند عبور هذه الجبال كما
تكشف في الوقت نفسه استمرار الاتصال بين
الجانبين دراسة جامعة كامبريدج عن الجغرافيا
التاريخية لأورارتو

الجبال والهوية السكانية

أرى أن الجبال لم تكن مجرد خلفية طبيعية للأحداث

لقد شاركت في تكوين المجتمع نفسه

فرضت طبيعة الأرض أنماطا خاصة من الزراعة والرعي وبناء القلاع وحفظ الحبوب وإدارة المياه

وساعدت الوديان المغلقة والمرتفعات الوعرة على استمرار جماعات محلية كثيرة حتى عندما تغيرت القوى السياسية الكبرى

عندما كانت إمبراطورية تسقط لم يكن جميع سكان القرى والجبال يرحلون معها

كان الناس يبقون فوق أرضهم ويواصلون الزراعة والرعي والبناء ثم يدخلون في نظام سياسي جديد

ومن هنا أفسر استمرار القاعدة السكانية القديمة بعد سقوط ميتاني وبعد تحول بلاد نايري إلى دولة

أورارتية وبعد انهيار أورارتو وظهور أرمينيا في
المصادر

لا أقول إن هذه المراحل كانت متطابقة

فلكل مرحلة نظامها السياسي ولغتها الرسمية
وتحالفاتها وصراعاتها

لكنني أقول إن الجغرافيا ساعدت على بقاء السكان
وعلى انتقال عناصر الحضارة من مرحلة إلى
أخرى

المياه وبناء الدولة

شكلت المياه أساس الحياة والقوة في المرتفعات

فعلى الرغم من كثرة البحيرات والثلوج كانت
الزراعة تحتاج إلى تنظيم دقيق للمياه

ولهذا اهتم ملوك أورارتو ببناء القنوات والسدود
والخزانات

وساعدت هذه المنشآت على توسيع الأراضي
الزراعية وإمداد المدن والقلاع بالمياه

لم تكن القناة المائية مشروعاً زراعياً فقط

كانت دليلاً على وجود سلطة قادرة على تنظيم
العمل والسيطرة على الأرض وربط السكان بالدولة

كما ساعدت المخازن الكبيرة على جمع الحبوب
وتوزيعها على المراكز العسكرية والإدارية

أرى في هذه المنشآت استمراراً لخبرات أقدم عرفتها
مجتمعات شمال بلاد الرافدين والمرتفعات

ثم انتقلت بعض تقاليدھا إلى المجتمعات التي عاشت
في المنطقة بعد أورارتو

الطرق والقلاع

أنشأ الأورارتيون شبكة من القلاع والطرق ونقاط
المراقبة

وربطت هذه الشبكة توشبا بالمناطق الشرقية
والشمالية والجنوبية

كانت القلاع تبنى فوق المرتفعات المشرفة على
الوديان والطرق

ومن خلالها تمكنت الدولة من حماية الحدود وجمع
الموارد ومراقبة حركة السكان والجيش

وتكشف المواقع الأورارتية المعروفة في شمال
غربي إيران عن طرق كانت تتجه غربا نحو توشبا
مركز المملكة موسوعة إيرانيكا عن الطرق
الأورارتية

هذه الشبكة تكشف أن أورارتو لم تكن مجموعة
قبائل معزولة

كانت دولة منظمة وحدت مناطق واسعة ومتنوعة
تحت سلطة مركزية

لكن هذه الوحدة السياسية قامت فوق مجتمعات
محلية أقدم

وأرى أن كثيرا من هذه المجتمعات كان حوريا أو
مرتبطا بالعالم الحوري وبلاد نايري

الجغرافيا قبل الأسماء

إن الخطأ الذي أرفضه هو البدء باسم أرمينيا ثم
البحث عن شعب ظهر معه فجأة

أنا أبدأ من الجغرافيا ثم أتتبع سكانها وممالكها
وتحولاتها

أجد الحوريين في شمال بلاد الرافدين والأناضول
الشرقي

ثم أجد بلاد نايري في المرتفعات المحيطة ببحيرة
وان

ثم أجد أورارتو توحد قسما واسعا من هذه البلاد

وبعد سقوط أورارتو يظهر اسم أرمينيا فوق قسم
كبير من الجغرافيا نفسها

هذا التعاقب لا يكفي وحده لإثبات أن جميع
الحوريين أصبحوا أرمن

لكنه يمنعني من قبول فكرة القطيعة الكاملة بين هذه
الشعوب

ويدفعني إلى البحث في السكان واللغة والآثار
والديانة والأسماء حتى أكتشف ما استمر وما تغير

خلاصة الفصل الأول

توصلت في هذا الفصل إلى أن الهضبة الأرمنية
وشمال بلاد الرافدين والأناضول الشرقي
وزاغروس شكلت مجالا تاريخيا متصلا

وكانت بحيرات وان وأورميا وسيفان وأحواض
أراس والفرات ودجلة مراكز أساسية للحياة
والحركة وبناء الممالك

فوق هذه الجغرافيا عاش الحوريون وظهرت شعوب
نايري وقامت أورارتو ثم تبلورت أرمينيا القديمة

ومن هذا الاتصال المكاني أبدأ البحث في الاتصال
السكاني والحضاري

فالأرض وحدها لا تثبت وحدة الشعب

لكنها تحفظ مسرح التاريخ وتكشف أن الحوريين
والأورارتيين والأرمن القدماء لم يعيشوا في عوالم
متباعدة

لقد عاشوا فوق أرض واحدة متصلة وتوارثوا مدنها
وطرقها ومياها وقلاعها وذاكرتها

وفي الفصل الثاني سأنتقل إلى الحوريين الأوائل
وأبحث في أصولهم وانتشارهم ولغتهم ومدنهم
ومعتقداتهم ودورهم في تكوين التاريخ القديم للمنطقة

الفصل الثاني

الحوريون الأوائل

أبدأ دراسة الحوريين من حقيقة أساسية وهي أنهم لم يكونوا جماعة هامشية ظهرت على أطراف الحضارات الكبرى ثم اختفت

كان الحوريون أحد الشعوب القديمة التي شاركت في بناء تاريخ شمال بلاد الرافدين وشمال سوريا والأناضول الشرقي والمرتفعات المجاورة

وقد انتشرت لغتهم وأسماءهم ومعتقداتهم في مساحة واسعة خلال الألفين الثالث والثاني قبل الميلاد

إن تحديد موطن واحد ونهائي لبداية الحوريين ليس أمراً سهلاً لأن النصوص التي وصلت إلينا لا تقدم قصة كاملة عن نشأتهم الأولى

ولهذا لا أبني رؤيتي على رواية هجرة مفاجئة وغير موثقة

أنطلق من انتشار الأسماء الحورية والنصوص
والآثار والمدن التي ارتبطت بهم ثم أتتبع المجال
الجغرافي الذي ظهروا فيه

وأجد أن مركز وجودهم التاريخي كان في شمال
بلاد الرافدين والمناطق الواقعة عند سفوح طوروس
وزاغروس والطرق المؤدية إلى الأناضول الشرقي
والمرتفعات الشمالية

الظهور المبكر للحوريين

بدأت الأسماء التي يمكن ربطها بالحوريين في
الظهور داخل نصوص الشرق الأدنى القديم خلال
الألف الثالث قبل الميلاد

لكن وجود أسماء حورية متفرقة لا يعني بالضرورة
أن جميع سكان المدينة التي وردت فيها كانوا
حوريين

إن الاسم دليل على وجود أفراد أو جماعات وعلى اتصال سكاني وثقافي لكنه يحتاج إلى الآثار والنصوص السياسية واللغوية حتى تتضح الصورة

ومع نهاية الألف الثالث قبل الميلاد أصبح الحضور الحوري أكثر وضوحا في شمال بلاد الرافدين

وظهرت ممالك وبيوت حاكمة حمل حكامها أسماء حورية واستخدم بعضهم اللغة الحورية في نقوشهم ومن أهم هذه المراكز أوركيش التي قامت في تل موزان الحالي

أوركيش أول مركز حوري كبير

أعطي أوركيش مكانة مركزية في هذا الكتاب لأنها تقدم دليلا مباشرا على وجود كيان سياسي حوري قديم في شمال بلاد الرافدين

وقعت المدينة عند سفوح طوروس في منطقة تربط
سهول الجزيرة بالممرات المؤدية إلى الجبال
والأناضول

وساعد موقعها على التواصل مع مدن بلاد الرافدين
ومع المراكز الواقعة شمالا وغربا وشرقا

كشفت أعمال التنقيب في تل موزان عن مدينة كبيرة
ضمت قصرا ملكيا ومعبدا ومرافق إدارية وأختاما
ونقوشا

وأظهرت أن أوركيش لم تكن قرية صغيرة أو
محطة تجارية عابرة

كانت مركزا سياسيا ودينيا يمتلك سلطة محلية
وعلاقات مع القوى المجاورة

وقد تمت أختام القصر أسماء شخصيات من الأسرة
الحاكمة وأظهرت موقع الملكة داخل النظام السياسي
والإداري

من أهم حكام أوركيش المعروفين تيش أتا الذي
حمل لقب ملك أوركيش

ارتبط اسمه بأسد أساس وضع تحت مبنى أو معبد
لحمايته وتثبيت قدسيته

حمل اللوح المرافق للأسد نقشا باللغة الحورية يذكر
الحاكم والمدينة

وهذا الأثر من أهم الشواهد المباشرة على اللغة
الحورية والسلطة الملكية في أوركيش

وتوضح دراسة أكاديمية للقطعة أن نقشها يذكر تيش
أتا ملك أوركيش وأن استخدامها ارتبط بطقوس

تأسيس المباني والتواصل الرمزي مع العالم السفلي
دراسة جامعة كامبريدج عن أسد أوركيش

إن وجود قصر ومعبد ونقش ملكي بلغة حورية
يجعل أوركيش ركنا أساسيا في فهم التاريخ الحوري

ومن منظوري فإن المدينة تكشف أن الحوريين
امتلكوا تقاليد سياسية ودينية راسخة قبل قيام مملكة
ميتاني بقرون

كما تكشف أن شمال بلاد الرافدين لم يكن مجرد
ساحة تابعة للقوى الجنوبية بل كان مركزا حضاريا
قادرا على إنتاج نظامه ورموزه وثقافته

ناغار ومدينة تل براك

إلى الجنوب من أوركيش برزت ناغار التي تقع في
تل براك الحالي

كانت ناغار من أهم مدن شمال بلاد الرافدين خلال
الألف الثالث قبل الميلاد

وربطتها بأوركيش علاقات سياسية واقتصادية
ودبلوماسية

لا أصف ناغار في جميع مراحلها بأنها مدينة
حورية خالصة لأن سكان المدن القديمة كانوا
متنوعين وكانت اللغات والإدارات تتغير

لكن وجود الحوريين في محيطها وفي شبكاتهما
السياسية يجعلها جزءا من المجال الذي تشكلت فيه
الحضارة الحورية

إن العلاقة بين أوركيش وناغار مهمة لأنها تكشف
وجود شبكة مدن مترابطة وليست تجمعات حورية
معزولة

وكانت هذه الشبكة تتحكم بالطرق الزراعية
والتجارية الممتدة بين الخابور والفرات والجبال
الشمالية

اللغة الحورية

كانت اللغة الحورية لغة مستقلة عن اللغات السامية
والسومرية والهندية الأوروبية

ولا تنتمي إلى اللغة الأكادية أو الآرامية أو الحثية

وقد أثبتت الدراسات اللغوية أن أقرب لغة معروفة
إليها هي اللغة الأورارتية التي ظهرت في نقوش
مملكة أورارتو خلال الألف الأول قبل الميلاد

لهذا أستخدم تعبير الحوري الأورارتي للدلالة على
العائلة اللغوية التي تضم اللغتين

لا أقول إن الحورية والأورارتية كانتا لغة واحدة
متطابقة

كانتا لغتين مرتبطتين تنحدران من أصل لغوي
مشترك

وقد ظهرت بينهما اختلافات نتيجة الزمن والجغرافيا
والتطور الداخلي

لكن هذه القرابة اللغوية تمثل دليلا أساسيا على
انتقال إرث لغوي حوري إلى الدولة الأورارتية
اللاحقة

وتؤكد الدراسات أن الحورية لا ترتبط مباشرة بلغة
قديمة أخرى معروفة سوى الأورارتية وأنها كانت
لغة أساسية لدى سكان مملكة ميتاني دراسة جامعة
كامبريدج عن لغات بلاد الرافدين

استخدم الحوريون الكتابة المسمارية التي كانت
منتشرة في الشرق الأدنى

وهذا لا يعني أن لغتهم كانت أكادية

فالخط المسماري نظام كتابة استخدمته شعوب
ولغات متعددة

وقد كتب الحوريون لغتهم بالمسمارية كما استخدمت
النخب الحورية اللغة الأكادية في المراسلات الدولية
والإدارة لأن الأكادية كانت لغة دبلوماسية واسعة
الانتشار

إن استخدام لغة أجنبية في المراسلات لا يلغي هوية
الشعب

كما أن استخدام الخط المسماري لا يجعل جميع من
كتب به سومريا أو أكاديا

انتشار الحوريين

انتشر الحوريون خلال الألف الثاني قبل الميلاد في
مناطق واسعة

ظهر حضورهم في وادي الخابور وشمال سوريا
وأعالي دجلة ومناطق كركوك وفي الأناضول
الجنوبي والشرقي

ووصل تأثير لغتهم وديانتهم إلى الدولة الحثية وإلى
مدن الساحل السوري

لكن الانتشار لم يكن متساويا في جميع الأماكن

كانت بعض المناطق ذات غالبية حورية أو نفوذ
حوري قوي

بينما عرفت مناطق أخرى وجود أسر حورية داخل
مجتمع متعدد السكان واللغات

من أهم المراكز المرتبطة بالحوريين أرابخا التي
تقع في منطقة كركوك ونوزي القريبة منها

قدمت ألواح نوزي معلومات واسعة عن الحياة
الاجتماعية والاقتصادية والقانونية

كشفت العقود والسجلات عن أسماء حورية كثيرة
وعن أسر وعادات محلية تطورت داخل مجتمع
متصل ببلاد الرافدين

ومع أن كثيرا من نصوص نوزي كتب باللغة الأكادية فإن الأسماء الحورية وانتشار المصطلحات المحلية يظهران قوة العنصر الحوري في المجتمع

أرى في نوزي مثالا واضحا على الفرق بين لغة الكتابة الإدارية وهوية السكان

فقد تكتب الإدارة بالأكادية بينما يتكلم قسم كبير من الناس الحورية ويحملون أسماء حورية

وهذه الحقيقة ستساعدني لاحقا على فهم التحول اللغوي في الهضبة الأرمنية

فانتقال السكان إلى لغة جديدة لا يعني بالضرورة أنهم غادروا أرضهم أو فقدوا جميع جذورهم السابقة

ميتاني

بلغ النفوذ الحوري مرحلة سياسية كبرى مع قيام
مملكة ميتاني خلال العصر البرونزي المتأخر

سيطرت ميتاني في أوجها على أجزاء واسعة من
شمال بلاد الرافدين وشمال سوريا ودخلت في
صراع وتحالف مع مصر والحثيين وآشور

كانت القاعدة السكانية والثقافية للمملكة حورية
بصورة واضحة

لكن أسماء بعض أفراد الطبقة الحاكمة وبعض
المصطلحات المتعلقة بالخيول والعربات والآلهة
أظهرت عناصر هندية آرية

لا أستخدم وجود هذه العناصر لإنكار الطابع
الحوري للمملكة

فالدول القديمة كثيرا ما ضمت طبقات حاكمة
وتحالفات عسكرية وعناصر ثقافية متعددة

وكانت اللغة الحورية واسعة الحضور داخل ميثاني
بينما استخدمت الأكادية في المراسلات الدولية

وتصف الدراسات الأكاديمية ميثاني بأنها قوة أو
اتحاد حوري تتركز في شمال شرق سوريا وشمال
بلاد الرافدين جامعة كامبريدج عن ميثاني الحورية

من أشهر النصوص المرتبطة بميثاني رسالة الملك
توشراتا إلى ملك مصر

كتبت الرسالة باللغة الحورية ضمن مراسلات
العمارنة

وتعد من أطول النصوص الحورية المعروفة

وقد ساعدت دراستها على فهم قواعد اللغة الحورية
ومفرداتها

كما تكشف الرسائل عن العلاقات الدبلوماسية
والزواج الملكي وتبادل الهدايا بين ميثاني ومصر

إن وجود رسالة ملكية طويلة بالحورية يثبت أن
اللغة لم تكن مجرد لهجة محلية صغيرة

كانت لغة بلاط ومجتمع سياسي كبير يمتلك علاقات
دولية واسعة

الديانة الحورية

امتلك الحوريون منظومة دينية غنية انتقلت عناصر
منها إلى الأناضول وسوريا

كان تشوب إله العاصفة من أبرز آلهتهم

وارتبطت به خبات التي احتلت مكانة بارزة في
العبادة الحورية

كما عبدوا شاوشكا التي ارتبطت بالحب والحرب
والسلطة والشفاء

وانتشرت عبادة كوماربي وآلهة أخرى ضمن
الأساطير والطقوس الحورية

لم تبقى هذه الآلهة محصورة في المدن الحورية

انتقلت إلى الحثيين ودخلت نصوصها وطقوسها إلى
أرشيف حاتوشا

وقد حفظت النصوص الحثية ترجمات واقتباسات
من أدب حوري أقدم

وهذا الانتقال يكشف قوة التأثير الحوري في ثقافات
الأناضول

إنني لا أبحث عن تشابه عابر بين أسماء الآلهة

أبحث عن مسارات واضحة لانتقال المعتقدات
والطقوس والأساطير من مجتمع إلى آخر

وسأعود في فصل الديانة الحورية الأورارتية إلى
المقارنة بين تشوب وإله العاصفة الأورارتي تيشيبا
وبين الآلهة والرموز التي استمرت في المراحل
اللاحقة

المجتمع الحوري

لم يكن المجتمع الحوري كتلة واحدة تخضع دائماً
لدولة مركزية

عاش الحوريون داخل مدن وممالك متعددة

وخضع بعضهم لسلطات أكادية وبابلية وحثية
وآشورية

كما حكموا ممالك مستقلة وأقاموا تحالفات سياسية

مارسوا الزراعة وتربية الحيوانات والصناعات
المعدنية والتجارة

وشاركوا في إدارة المدن والجيش والمعابد

وقد اشتهرت منطقة ميتاني بالعربات والخيول
ودورها العسكري

لكنني لا أختزل الحضارة الحورية في الخيل
والعربات

فالألواح والأختام والقصور والمعابد تكشف مجتمعا
متنوعا امتلك إدارة وقانونا وطقوسا وفنا وأدبا
وعلاقات دولية

الحوريون والمرتفعات الشمالية

هنا أصل إلى المسألة الأساسية في كتابي

كيف أنتقل من الحوريين في شمال بلاد الرافدين
وسوريا إلى أورارتو وأرمينيا القديمة

لا أعتمد على تشابه الأسماء وحده

أنطلق من القرابة المثبتة بين اللغتين الحورية
والأورارتية ومن الاتصال الجغرافي بين شمال بلاد
الرافدين والمرتفعات المحيطة ببحيرة وان ومن
استمرار بعض البنى الدينية والثقافية

لا أقول إن مملكة ميتاني تحولت مباشرة إلى
أورارتو

فبين ضعف ميتاني وقيام أورارتو عدة قرون شهدت
تغيرات سياسية وسكانية كبيرة

لكن سقوط الدولة الحورية لم يؤد إلى اختفاء جميع
الناطقين بالحورية أو الجماعات المرتبطة بها

من الطبيعي أن يبقى قسم من السكان في المناطق
الجبلية وأن يتطور لسانهم وثقافتهم داخل ممالك
جديدة

أرى أن ظهور الأورارتية بوصفها أقرب لغة
معروفة إلى الحورية داخل المرتفعات ليس حادثة
منفصلة

إنه دليل على بقاء فرع من العالم الحوري وتطوره
في بيئة سياسية وجغرافية جديدة

وسأبحث في الفصول التالية عن الأدلة التي تربط
الحضور الحوري بالمرتفعات الأرمنية ثم ببلاد
نايري وأورارتو

خلاصة الفصل الثاني

توصلت إلى أن الحوريين كانوا شعبا واسع الانتشار
امتلك مدنا وممالك ولغة وديانة وثقافة مؤثرة

قدمت أوركيش دليلا على وجود ملكية حورية قديمة

وكشفت نوزي وأررابخا عن عمق الحضور
الحوري في المجتمع

ومثلت ميتاني ذروة القوة السياسية الحورية خلال
العصر البرونزي المتأخر

كما انتقلت الآلهة والأساطير والطقوس الحورية إلى
الأناضول وأثرت في الحثيين وغيرهم

إن أهم ما أستخلصه هو أن التاريخ الحوري لم ينته
بسقوط ميتاني

استمرت عناصره داخل السكان واللغات والمعتقدات
في المناطق الشمالية

وأصبحت اللغة الأورارتية في الألف الأول قبل
الميلاد الشاهد الأقوى على استمرار الفرع الحوري
الأورارتي

وفي الفصل الثالث سأنتقل إلى الحوريين في
المرتفعات الأرمنية وسأبحث في الأدلة الجغرافية
واللغوية والأثرية التي تربطهم ببلاد نايري
وأورارتو وبالجذور القديمة للشعب الأرمني

الفصل الثالث

الحوريون والمرتفعات الأرمنية

أنتقل في هذا الفصل من المراكز الحورية المعروفة في شمال بلاد الرافدين وشمال سوريا إلى المرتفعات التي قامت فيها لاحقا ممالك نايري وأورارتو وأرمينيا القديمة

لا أبحث عن حدود قومية مرسومة كما هي في العصر الحديث

فالعالم القديم لم يعرف الحدود الثابتة التي تفصل الشعوب فصلا كاملا

كانت الجبال والوديان والأنهار والمراعي تشكل مجالات للحركة والتجارة والزواج والحرب وانتقال اللغات والمعتقدات

ولهذا أرى أن دراسة الحوريين داخل المرتفعات لا
تقوم على البحث عن دولة تحمل اسم حوري فوق
كل مدينة

تقوم على جمع النصوص واللغات والأسماء والآثار
والطرق القديمة ثم وضعها داخل سياق جغرافي
واحد

معنى المرتفعات الأرمنية

أستخدم تسمية المرتفعات الأرمنية للدلالة على
المجال الجغرافي الواسع الممتد بين الأناضول
الشرقي وبحيرة وان وبحيرة أورميا وبحيرة سيفان
ووادي أراس وأعالي الفرات ودجلة

ولا أستخدم هذه التسمية للقول إن المنطقة كانت
تحمل الاسم نفسه في جميع العصور

ففي زمن الحوريين لم تكن دولة باسم أرمينيا قد
ظهرت في النصوص

وكانت المنطقة مقسمة بين مدن وممالك وجماعات
محلية عرفت بأسماء متعددة

إنني أميز دائما بين اسم الجغرافيا المستخدم في
الدراسات الحديثة وبين أسماء البلاد الواردة في
الوثائق القديمة

وأرى أن هذا التمييز ضروري حتى لا أضع اسما
متأخرا داخل زمن أقدم منه

الجبال لم تكن حاجزا مغلقا

تفصل جبال طوروس الشرقية بين سهول شمال بلاد
الرافدين والمرتفعات الواقعة إلى الشمال

لكنها لم تكن جدارا يمنع انتقال البشر

احتوت هذه الجبال على ممرات سلكها الرعاة
والتجار والجيوش والمبعوثون

وكانت الأنهار والوديان تحدد الطرق التي تربط
الخابور وأعالي دجلة بمناطق وان وموش وبيتليس
وأرضروم

تظهر حوليات الملوك الآشوريين مقدار الصعوبة
التي واجهتها جيوشهم عند دخول المرتفعات

وتكشف في الوقت نفسه أن الطريق بين السهول
والجبال كان معروفا وأن الاتصال بين المنطقتين
استمر عبر القرون

وقد بينت دراسة الجغرافيا التاريخية لشرق
الأناضول أن طوروس الشرقي فصل سهول بلاد
الرافدين عن المرتفعات لكنه لم يمنع الحملات من
الوصول إلى بلاد نايري ثم أورارتو دراسة جامعة
كامبريدج عن جغرافية شرق الأناضول

أرى أن الطرق نفسها التي عبرتها الجيوش كانت
قبل ذلك وبعده طرقا للسكان والثقافة والتجارة

ولذلك لا يمكن عزل الحوريين في الجزيرة
والخابور عن المجتمعات التي عاشت وراء الجبال

المجال الحوري في الأناضول

تكشف النصوص المكتشفة في حاتوشا عاصمة
الحثيين عن حضور قوي للغة الحورية والآلهة
والطقوس والأساطير الحورية

كما حمل عدد من أفراد الأسر الحاكمة والنخب
أسماء حورية

وكانت الملكة بودوخيا من أشهر الشخصيات
المرتبطة بالبيئة الدينية الحورية في كيليكية

ودخلت آلهة حورية كثيرة إلى المعبد الحثي
وأصبحت جزءا من النظام الديني للدولة

إن هذا الحضور لا يعني أن الحثيين أصبحوا
حوريين

لكنه يثبت أن الثقافة الحورية عبرت إلى داخل
الأناضول ولم تبق محصورة في شمال بلاد الرافدين

وقد أكدت دراسات معهد جامعة شيكاغو أن التأثير
الحوري في الأناضول كان قويا وأن ألواحاً كثيرة
باللغة الحورية اكتشفت في بوزغازكوي وأن أسماء

حورية ظهرت داخل الأسرة الملكية الحثية معهد
جامعة شيكاغو عن الحوريين

أستفيد من هذا الدليل في إثبات قدرة الثقافة الحورية
على الانتقال لمسافات واسعة

فإذا وصلت اللغة والديانة الحورية إلى وسط
الأناضول فمن الطبيعي أن يكون حضورها أكثر
قوة في المناطق الشرقية الأقرب إلى المراكز
الحورية

لكنني لا أحول هذا الاحتمال إلى حقيقة من دون
دليل

أضعه داخل شبكة الأدلة التي تشمل الجغرافيا واللغة
الأورارتية وأسماء الأشخاص والأماكن واستمرار
بعض المعتقدات

أعالي الفرات

مثل أعالي الفرات أحد أهم الممرات بين سوريا
الشمالية والأناضول والمرتفعات

انتشرت في هذه المنطقة مدن وممالك تأثرت
بالحوريين والحثيين واللوحيين

وكانت الحدود السياسية تتغير باستمرار

أصبحت مناطق مثل كيزواتنا وملطية والسهول
القريبة من الفرات فضاءات يلتقي فيها الحوري
بالأناضولي والسوري

انتقلت عبرها الآلهة والطقوس والقصص الحورية
إلى الحثيين

كما عبرتها الجيوش والتجارة بين ميثاني
والأناضول

أرى أن أعالي الفرات كانت الجسر الغربي لانتشار
العناصر الحورية نحو المرتفعات

ولم يكن الانتقال دائما نتيجة غزو أو هجرة كبرى

كان يحدث أيضا من خلال الزواج السياسي والكهنة
والحرفيين والجنود والتجار والأسرى

أعالي دجلة

شكل أعالي دجلة الجسر الجنوبي المباشر بين شمال
بلاد الرافدين وحوض بحيرة وان

وكانت المناطق الواقعة حول آمد و طور عابدين
والجزيرة العليا قريبة من المراكز التي عرفت
وجودا حوريا واضحا

ومن أعالي دجلة كانت الطرق تتجه عبر الجبال
نحو موش وبيتليس ووان

إن موقع أوركيش عند سفوح طوروس يقدم مثالا
مهما

فالمدينة لم تقم بعيدا عن الجبال بل عند بوابتها
الجنوبية

وكان ارتباطها بالمناطق الشمالية جزءا من قوتها
الدينية والسياسية

ومن منظوري لم يكن موقع أوركيش نهاية العالم
الحوري بل نقطة اتصال بين السهول الحورية
والمجتمعات الجبلية

بحيرة وان

أصل بعد ذلك إلى حوض بحيرة وان الذي أصبح
مركز مملكة أورارتو

لا أمتلك نصوصا حورية كثيرة من حوض وان
تماثل ما اكتشف في أوركيش أو نوزي

ولهذا لا أقول إن كل سكان المنطقة في الألف الثاني
قبل الميلاد كانوا حوريين اعتمادا على التخمين

لكن ظهور اللغة الأورارتية في المنطقة خلال الألف
الأول قبل الميلاد يقدم دليلا لغويا شديد الأهمية

فاللغة الأورارتية ليست سامية ولا هندية أوروبية

وهي أقرب اللغات المعروفة إلى الحورية

هذا يعني أن جماعة تتكلم لغة من الفرع الحوري
الأورارتي كانت موجودة داخل المرتفعات عندما
تأسست الدولة الأورارتية

ومن هنا أ طرح سؤالي الأساسي

كيف ظهرت لغة قريبة جدا من الحورية في مركز
دولة قامت شمال مناطق الانتشار الحوري القديم إذا
لم تكن هناك استمرارية سكانية ولغوية بين العالمين

لا أعتبر القرابة اللغوية وحدها دليلا على أن كل
حوري أصبح أورارتيا

لكنني أعتبرها دليلا قويا على بقاء فرع من السكان
واللغة الحورية الأورارتية في المرتفعات

وتوضح الدراسات الحديثة أن الحورية كانت
مرتبطة بالأورارتية التي أصبحت لغة المملكة
اللاحقة في المرتفعات جامعة كامبريدج عن الحورية
والأورارتية

بلاد نايري

قبل قيام الدولة الأورارتية تحدثت النصوص
الآشورية عن بلاد نايري

لم تكن نايري في بدايتها اسم دولة مركزية واحدة

كانت تسمية لمجموعة من البلاد والممالك الجبلية
الواقعة في مناطق واسعة حول منابع دجلة والفرات
وبحيرة وان

واجه الملوك الآشوريون حكاما محليين متعددين ولم
يواجهوا دائما ملكا واحدا يحكم الجميع

أرى أن بلاد نايري تمثل المرحلة السياسية الواقعة
بين العالم الحوري القديم وقيام أورارتو

لا أقول إن كلمة نايري تعني حوريين من الناحية
اللغوية

ولا أقول إن جميع حكام نايري كانوا من أصل واحد

لكن الجغرافيا والمرحلة الزمنية وظهور أورارتو
من داخل المنطقة نفسها تجعل نايري حلقة أساسية
في البحث

عندما وحدثت أورارتو عددا من هذه البلاد لم تبدأ
من أرض خالية

بنت دولتها فوق مجتمعات جبلية سبقتها بقرون

وكان جزء من هذه المجتمعات يتكلم لغات أو
لهجات تنتمي إلى الفرع الحوري الأورارتي

أسماء الأشخاص والأماكن

تساعد أسماء الأشخاص والمدن والجبال والأنهار
على دراسة انتشار الشعوب القديمة

لكنني أتعامل معها بحذر

فقد ينتقل اسم مدينة من لغة إلى أخرى ويبقى بعد
تغير سكانها

وقد يحمل شخص اسما أجنبيا بسبب الدين أو
المصاهرة أو التقليد السياسي

لذلك لا أستخدم اسما واحدا لإثبات هوية منطقة
كاملة

أبحث عن مجموعة متراكمة من الأسماء تتوافق مع
النصوص واللغة والجغرافيا والآثار

تظهر في مناطق الأناضول والمرتفعات أسماء
شخصية وإلهية ذات صلات حورية

كما استمرت أسماء بعض الآلهة والمراكز الدينية
داخل بيئات مختلفة

إن هذا الانتشار يدل على عمق التأثير الحوري لكنه
لا يسمح لي بوصف كل اسم غير سامي بأنه حوري

سأعتمد في الفصول اللاحقة على الأسماء التي قدم
علماء اللغات القديمة تحليلا واضحا لها

وسأتجنب الاشتقاقات التي تعتمد فقط على تشابه
الصوت

الأدلة الأثرية

يصعب أحيانا تحديد هوية شعب كامل من خلال
الفخار أو العمارة وحدهما

فالقطة الأثرية قد تنتقل بالتجارة وقد يقلدها شعب
آخر

كما أن المجتمعات المتجاورة تتشارك أساليب البناء
وصناعة الأدوات

لهذا لا أقول إن كل فخار اكتشف في المرتفعات
يحمل هوية حورية

أبحث عن اجتماع عدة عناصر داخل الموقع نفسه

العمارة والنقوش والأختام والأسماء والطقوس
وشبكة العلاقات

إن أسد الأساس في أوركيش دليل مباشر لأنه يحمل
نقشا حوريا واسم ملك حوري

أما التشابه بين مبنى في المرتفعات ومبنى في شمال
بلاد الرافدين فهو دليل مقارن يحتاج إلى عناصر
أخرى

هذا المنهج لا يضعف رؤيتي بل يحميها من الاعتماد
على تشابهات سطحية

الاستمرار الديني

انتشرت آلهة الحوريين في الأناضول ووصلت
طقوسهم وأساطيرهم إلى الأرشف الحثي

كان تشوب إله العاصفة في مركز الديانة الحورية

وظهرت خبات وشاوشكا وكوماربي ضمن
النصوص والعبادات

وفي أورارتو ظهر تيشيبا إله العاصفة إلى جانب
خالدي وشيفيني

يعد اسم تيشيبا ووظيفته من أوضح الصلات بين
العالم الحوري والعالم الأورارتي

لا أقول إن الديانتين كانتا متطابقتين

فأورارتو أعادت تنظيم الآلهة داخل نظام رسمي
يخدم المملكة والسلطة الملكية

لكن استمرار إله العاصفة وصلة اسمه بالموروث
الحوري يكشف أن الأورارتيين لم يبدووا ديانتهم من
الصفـر

احتفظوا بعناصر قديمة ثم أعادوا صياغتها داخل
دولتهم

اللغة والهوية

لا أساوي بصورة آلية بين اللغة والهوية

فقد يتكلم شعب لغة جديدة مع بقائه فوق أرضه

وقد تستخدم الدولة لغة رسمية تختلف عن اللغة
اليومية لبعض سكانها

كانت الأكادية لغة مراسلات وإدارة في مناطق ذات
سكان حوريين

ولم يجعل ذلك جميع الحوريين أكاديين

وبالطريقة نفسها فإن انتشار اللغة الأرمنية الهندية
الأوروبية في مرحلة لاحقة لا يثبت أن السكان
الحوريين والأورارتيين اختفوا

أرى أن التحول اللغوي يمكن أن يحدث من خلال
اختلاط طويل بين السكان وسيطرة نخبة جديدة وقيام
دولة وتوسع لغة مشتركة

لهذا أفصل بين أصل اللغة الأرمنية وبين مجموع
الأصول السكانية للشعب الأرمني

قد تكون اللغة الأرمنية هندية أوروبية بينما يحمل
السكان جزءا كبيرا من الإرث الحوري الأورارتي

وهذه الفكرة تقع في قلب أطروحتي

من الحوري إلى الأورارتي

لا أضع خطا مستقيما بسيطا يبدأ في أوركيش
وينتهي في توشبا

التاريخ أكثر تعقيدا من ذلك

شهدت المنطقة انهيار ميثاني وتوسع الحثيين وآشور
وهجرة جماعات متعددة وظهور ممالك محلية

ومرت قرون قبل قيام أورارتو

لكن وجود الفاصل الزمني لا يلغي الاستمرار
السكاني

إن القرابة بين الحورية والأورارتية لا يمكن
تفسيرها بمجرد تشابه ثقافي

إنها قرابة لغوية حقيقية تدل على أصل مشترك

والوجود الجغرافي للغتين في منطقتين متجاورتين
يدعم احتمال انتقال السكان واللغة وتطورهم داخل
المرتفعات

أرى أن الأورارتيين كانوا الورثة السياسيين
واللغويين لفرع من العالم الحوري

لم يكونوا نسخة مطابقة من حوريي ميتاني
وأوركيش

كانوا مجتمعا جديدا تشكل من جماعات المرتفعات
واستوعب إرثا حوريا قديما ثم بنى دولة مركزية
قوية

من الأورارتي إلى الأرمني القديم

عندما ظهرت الهوية الأرمنية لم تظهر فوق أرض
مجهولة التاريخ

ظهرت داخل المنطقة التي عاشت فيها المجتمعات
الحورية ثم ممالك نايري ثم أورارتو

لا أقول إن الأرمن القدماء كانوا أورارتيين فقط

فالتكوين الأرمني دخلت فيه عناصر لغوية وسكانية
متعددة

لكنني أرفض إخراج الحوريين والأورارتيين من
أصل الشعب الأرمني

أرى أن القاعدة المحلية القديمة بقيت حاضرة
وشاركت في تكوين المجتمع الأرمني

تغيرت اللغة السياسية ثم تبلورت الأرمنية بوصفها
لغة الشعب الجديد

لكن السكان حملوا معهم خبراتهم الزراعية وأسماء
أماكنهم وذاكرتهم المحلية وبعض معتقداتهم
وأساليبهم في بناء المدن وإدارة المياه

إن ظهور اسم جديد لا يمحو تاريخ الأرض ولا
دماء سكانها السابقين

خلاصة الفصل الثالث

توصلت إلى أن الحضور الحوري في المرتفعات
الأرمنية لا يقوم على نص واحد أو أثر منفرد

يقوم على اتصال جغرافي طويل بين شمال بلاد
الرافدين والأناضول الشرقي وعلى انتشار حوري
واضح داخل الأناضول وعلى ظهور لغة أورارتية
ترتبط بالحورية ارتباطا مباشرا وعلى استمرار
عناصر دينية وثقافية داخل الدولة الأورارتية

كما توصلت إلى أن بلاد نايري تمثل حلقة ضرورية
لفهم الانتقال من الممالك الجبلية السابقة إلى قيام
أورارتو

لا أدعي أن جميع سكان المرتفعات كانوا حوريين
ولا أن كل عنصر أورارتي مأخوذ من الحوريين

لكنني أرى أن الفرع الحوري الأورارتي كان من
المكونات السكانية واللغوية الأساسية في المنطقة

ومن هذا المكون خرج جزء كبير من القاعدة التي شاركت لاحقاً في تكوين الشعب الأرمني القديم

وفي الفصل الرابع سأنتقل إلى شعوب نايري وممالكها وحكامها وجغرافيتها وسأبحث في موقعها بين الحوريين وأورارتو وفي الدور الذي أدته في توحيد المرتفعات قبل ظهور الدولة الأورارتية الكبرى

لفصل الرابع

شعوب نايري

أصل في هذا الفصل إلى شعوب نايري التي أعدها الحلقة السياسية والجغرافية الأساسية بين العالم الحوري القديم وقيام مملكة أورارتو

لم تكن نايري في بدايتها دولة موحدة يحكمها ملك واحد

كانت اسما واسعا استخدمته النصوص الآشورية
للإشارة إلى مجموعة من البلاد والممالك الجبلية
الواقعة شمال آشور في منطقة أعالي دجلة والفرات
وحول بحيرة وان والمناطق الممتدة نحو شمال
شرق الأناضول

ولهذا أستخدم تعبير شعوب نايري ولا أستخدم تعبير
شعب نايري الواحد في جميع المراحل

فالاسم جمع تحت مظلته ممالك وجماعات متعددة
كانت مستقلة سياسيا لكنها اشتركت في الجغرافيا
الجبلية وفي مواجهة الحملات القادمة من الجنوب

مصادر تاريخ نايري

تعتمد معرفتي المبكرة بنايري بصورة أساسية على
النصوص الملكية الآشورية

وهذه النصوص لم تكتب لتقديم تاريخ محايد لشعوب
المرتفعات

كتبها ملوك آشور لتمجيد انتصاراتهم وإظهار قوتهم
وإخضاع خصومهم

ولهذا أتعامل بحذر مع أعداد المدن والملوك
والأسرى والغنائم الواردة فيها

لا أرفض النصوص لأنها منحازة

بل أستخرج منها أسماء البلاد والطرق والجبال
والحكام والتحالفات ثم أقارن الروايات المختلفة

إن النص الآشوري يكشف وجود ممالك نايري لكنه
يقدمها من خلال عين الجيش الذي غزاها

أما أصوات سكان نايري أنفسهم فلم تصل إلينا في
هذه المرحلة على شكل أرشيف سياسي متكامل

ولهذا تبقى صورتهم ناقصة حتى ظهور النقوش
الأورارتية اللاحقة

أورواتري قبل نايري

ظهر اسم أورواتري في نصوص الملك الآشوري
شلمنصر الأول خلال القرن الثالث عشر قبل الميلاد

ذكر شلمنصر أنه أخضع ثماني بلاد وواحدا
وخمسين مدينة في أورواتري خلال ثلاثة أيام

لا أتعامل مع هذا الوصف باعتباره تقريرا عسكريا
دقيقا في جميع تفاصيله

فالنص الملكي الآشوري يميل إلى المبالغة في
سرعة الانتصار واتساعه

لكن ذكر ثماني بلاد وواحد وخمسين مدينة يكشف
أن أورواتري لم تكن دولة مركزية واحدة في ذلك
الوقت

كانت منطقة تحتوي على وحدات سياسية ومحلية
متعددة

وتوضح دراسة معهد جامعة شيكاغو أن ظهور
أورواتري سبق قيام الوحدة السياسية الأورارتية
بعده قرون وأن نص شلمنصر الأول لا يذكر حاكما
أورارتيا واحدا يجمع هذه البلاد معهد جامعة
شيكاغو عن تشكل أورارتو ونايري

إن اسم أورواتري يرتبط من الناحية التاريخية باسم
أورارتو الذي استخدمه الآشوريون لاحقا

لكنني لا أساوي بين أورواتري في القرن الثالث
عشر قبل الميلاد ومملكة أورارتو المركزية في
القرن التاسع قبل الميلاد

الاسم الجغرافي ظهر أولاً ثم مرت المنطقة
بتحولات طويلة قبل أن يتحول إلى اسم مملكة قوية

الظهور الأول لنايري

ظهر اسم نايري بوضوح في نصوص توكولتي
نينورتا الأول خلال القرن الثالث عشر قبل الميلاد

تحدث الملك الآشوري عن مناطق نائية وعن
أربعين ملكاً من ملوك نايري

يكشف هذا العدد عن التجزئة السياسية التي كانت
سائدة في المرتفعات

لم يكن هناك ملك واحد يمثل جميع البلاد

كان لكل واد أو سهل أو مجموعة مدن حاكمها المحلي

وقد تدخل هذه الممالك في تحالف عند مواجهة خطر خارجي ثم تعود إلى استقلالها بعد انتهاء الحرب

لا أفهم كلمة ملك هنا بالمعنى نفسه الذي ينطبق على ملك آشور أو ملك مصر

ربما حكم بعض ملوك نايري مساحة صغيرة تضم مدينة محصنة وعددا من القرى والمراعي

لكن استخدام الآشوريين لقب الملك يدل على اعترافهم بوجود سلطات محلية منظمة وليست تجمعات بلا قيادة

تغلات فلاسر الأول

قاد تغلات فلاسر الأول حملات كبيرة نحو نايري
في بداية الألف الأول قبل الميلاد

تذكر إحدى رواياته أن ثلاثة وعشرين ملكا من
ملوك نايري جمعوا عرباتهم وجيوشهم وتقدموا
لمواجهته

وتقدم النص نفسه دليلا مباشرا على وجود تحالف
عسكري بين حكام مستقلين نقش تغلات فلاسر
الأول في مشروع النصوص الملكية الآشورية

وتتحدث نصوص أخرى للملك نفسه عن ثلاثين أو
ستين ملكا من ملوك نايري

لا أرى أن اختلاف الأرقام يجب أن يدفعني إلى
اختيار رقم واحد ورفض البقية

قد تشير النصوص إلى حملات مختلفة أو إلى
مراحل متعددة من الصراع

وقد تكون بعض الأرقام قد استخدمت للمبالغة في
قوة الخصوم حتى يبدو انتصار الملك أعظم

لكن جميع الروايات تتفق على حقيقة واحدة

كانت نايري تضم عددا كبيرا من الممالك ولم تكن
دولة مركزية واحدة

تذكر النصوص وصول الحملات إلى البحر الأعلى

وقد اختلفت الآراء في تحديد المقصود بهذا البحر
في جميع المواضع

لذلك لا أبني حدود نايري على تفسير واحد لهذه
العبارة

أعتمد على مجموع أسماء البلاد ومسارات الحملات
وطبيعة الجغرافيا حتى أحدد المجال التقريبي الذي
استخدم فيه الاسم

طبيعة ممالك نايري

كانت ممالك نايري نتاج البيئة الجبلية

فرضت الجبال والثلوج والوديان العميقة والممرات
الصعبة نوعا خاصا من التنظيم السياسي

استطاعت المجتمعات المحلية أن تحمي نفسها داخل
القلاع والمرتفعات

لكن الجغرافيا نفسها جعلت توحيد المنطقة تحت
سلطة واحدة أمرا صعبا

فصل الشتاء الطويل بعض المناطق عن بعضها

وربطت الممرات كل سهل أو واد بطريق محدد
يمكن مراقبته والدفاع عنه

اعتمد السكان على الزراعة في السهول والوديان
وعلى تربية الحيوانات في المراعي الجبلية

وكانت الخيول من الموارد المهمة التي جذبت اهتمام
الآشوريين

وتحدثت النصوص عن الخيول والعربات والماشية
والمعادن وغيرها من الغنائم والإتاوات

لا يعني تقديم الخيول أن شعوب نايري كانت مجرد
قبائل رعوية

فوجود المدن المحصنة والحقول والمخازن يدل على
مجتمعات مستقرة جمعت بين الزراعة والرعي
والصناعة والتجارة

الهوية السكانية لشعوب نايري

لا تقدم النصوص الآشورية وصفا واضحا للغات
جميع شعوب نايري أو أصولهم

ولهذا لا أقول إن كل مملكة حملت اسم نايري كانت
حورية بصورة مؤكدة

كان المجال واسعا ومن الطبيعي أن يضم جماعات
متعددة

لكنني أرفض أيضا فصل نايري عن العالم الحوري
فصلا كاملا

ظهرت نايري في الجغرافيا الواقعة شمال مناطق
الانتشار الحوري القديم

ثم خرجت من بيئتها مملكة أورارتو التي كانت لغتها
أقرب لغة معروفة إلى الحورية

إن هذه السلسلة الجغرافية واللغوية تجعل وجود
جماعات حورية أورارتية داخل نايري أمرا قويا

قد تكون ممالك نايري قد ضمت حوريين وجماعات
جبلية أخرى تقاربت وتحالفت واختلطت عبر قرون

ومن هذا الاختلاط تشكلت القاعدة السكانية التي
وحدتها أورارتو لاحقا

لا أبحث عن نقاء عرقي لم تعرفه المجتمعات القديمة

أبحث عن العنصر الحضاري واللغوي الذي وفر
الاستمرار بين المراحل

وأجد أن العنصر الحوري الأورارتي كان من أهم
هذه العناصر

نايري وأورارتو

كانت العلاقة بين اسمي نايري وأورارتو معقدة

لم يكونا مترادفين بصورة كاملة في جميع العصور

في النصوص الآشورية الوسطى ظهرت أورواتري
وناييري للدلالة على مجالات جبلية قد تكون
متجاورة أو متداخلة لكنها لم تكن دولة واحدة

وفي مرحلة لاحقة أصبح الآشوريون يستخدمون
اسم أورارتو للمملكة الموحدة

بينما استخدم بعض ملوك أورارتو لقب ملك نايري
في نقوشهم المكتوبة بالأكدية

هذا الاستخدام يكشف أن اسم نايري احتفظ بمكانة
واسعة ومهمة داخل الذاكرة السياسية للمرتفعات

عندما لقب ساردوري الأول نفسه ملك نايري كان
يعلن أنه ورث سلطة البلاد والممالك التي كانت
تحمل هذا الاسم

لم يكن اللقب وصفا جغرافيا فقط

كان إعلان سيادة على عالم جبلي قديم سبق قيام
الدولة الأورارتية

وتشير دراسة جامعة شيكاغو إلى أن ملوك أورارتو استخدموا اسم نايري عند الكتابة بالأكادية بينما استخدم الآشوريون اسم أورارتو للدولة نفسها في مرحلة لاحقة دراسة الدولة الأورارتية

الضغط الآشوري وتوحيد المرتفعات

أرى أن الحملات الآشورية المتكررة أسهمت في دفع ممالك المرتفعات نحو الاتحاد

عندما كانت الحملات متباعدة استطاعت الممالك الصغيرة أن تعود إلى استقلالها بعد انسحاب الجيش الآشوري

لكن تحول الحملات إلى ضغط متكرر جعل النظام القديم غير قادر على الدفاع عن المنطقة

كانت كل مملكة تواجه جيشاً منظماً يمتلك خبرة
وحصاراً وعربات وقدرة على تدمير المدن ونقل
السكان

أمام هذا الخطر أصبح الاتحاد ضرورة للبقاء

لا أقول إن آشور أنشأت أورارتو بصورة مباشرة

فأهل المرتفعات هم الذين بنوا دولتهم

لكن التهديد الآشوري ساعد على تسريع الانتقال من
عشرات الممالك الصغيرة إلى قيادة مركزية قادرة
على جمع الجيوش وبناء القلاع وتنظيم الموارد

وتشير الدراسة الأكاديمية لتاريخ أورارتو إلى
تزامن ازدياد الحملات الآشورية مع انخفاض عدد
الوحدات السياسية وظهور المدن الملكية والقيادة
الموحدة في المرتفعات معهد جامعة شيكاغو

آشور ناصر بال الثاني ومادارا

في القرن التاسع قبل الميلاد دخل آشور ناصر بال
الثاني مناطق مرتبطة بنايري

وتحدث عن مدينة مادارا المحصنة بأربعة أسوار
وعن لابتوري ابن توبوسي الذي حكم المدينة
ومجموعة من المدن المحيطة بها

يكشف هذا النص بداية ظهور ممالك محلية أكبر من
الوحدات الصغيرة السابقة

لم تصبح نايري دولة واحدة بعد

لكن بعض الحكام تمكنوا من السيطرة على عدد من
المدن والقلاع

كان هذا التطور مقدمة لمرحلة التوحيد الكبرى التي
ظهرت في أورارتو

أرامي وبداية الملكية الموحدة

خلال عهد شلمنصر الثالث ظهر أرامي بوصفه
حاكما أورارتيا يحمل سلطة أوسع

هاجم الآشوريون مدنه الملكية سوغونيا وأرزشكون
وتدل تسمية المدينتين بالمدن الملكية على وجود
مركز سياسي أكثر تطورا

لم يعد النص يتحدث فقط عن عشرات الملوك
المتساوين

ظهر ملك واحد يقود أكثر من مركز مهم ويجمع
جيشا يستطيع مواصلة المقاومة بعد سقوط إحدى
مدنه

تعرض أرامي لحملات آشورية قوية لكنه بقي في
المصادر سنوات طويلة

وهذا يدل على أن سلطته لم تكن مرتبطة بمدينة
واحدة فقط

أرى في مرحلة أرامي اللحظة التي بدأت فيها
الممالك الجبلية تتحول إلى دولة

لم تكن أورارتو قد اكتملت بعد بالشكل الذي ظهر
في عهد ساردوري وإشبويني ومينوا

لكن القيادة الموحدة أصبحت واقعا سياسيا

ساردوري الأول

ظهر بعد أرامي الملك ساردوري الأول ابن لوتيري

أسس ساردوري السلالة التي حكمت أورارتو خلال
مرحلة قوتها الكبرى

وجعل توشبا عند بحيرة وان مركزا للملك

ترك نقوشا بالأكادية واستخدم ألقابا ملكية تأثرت
بالصياغة الآشورية

ومن بين ألقابه ملك نايري

إن استخدامه اللغة الأكادية في نقوشه الأولى لا يعني
أن دولته كانت أكادية

كانت الأكادية لغة ملكية ودبلوماسية معروفة يمكن
استخدامها لتقديم الدولة الجديدة إلى العالم السياسي
المحيط بها

أما اللغة المحلية للدولة فظهرت لاحقا بوضوح في
النقوش الأورارتية

أرى أن ساردوري لم يؤسس شعبا جديدا من عدم

قام بتوحيد جماعات ومدنا وممالك كانت موجودة
قبله

ورث سكان نايري وخبراتهم وطرقهم وقلاعهم ثم
وضعهم داخل نظام ملكي مركزي

من نايري إلى بيانيلى

كان الاسم الذي استخدمه الأورارتيون لمملكتهم هو
بيانيلى

أما أورارتو فكان الاسم الذي اشتهرت به الدولة في
النصوص الآشورية

ومع قيام بيانيلى دخلت المرتفعات مرحلة جديدة

أصبح الملك يقود جيشاً مركزياً ويعين المسؤولين
ويبني القلاع والقنوات والمخازن وينظم العبادة
الرسمية

لم تختف ممالك نايري كلها في لحظة واحدة

امتصت الدولة الجديدة قسماً منها بالقوة وقسماً آخر
بالتحالف والتوسع الإداري

كما تقاسمت آشور وأورارتو بعض مناطق نايري
الجنوبية

وأصبح الاسم القديم يفقد معناه السياسي المستقل
تدريجياً

لكن سكان نايري لم يختفوا

أصبحوا جزءاً من المجتمع الأورارتي

وهذه النقطة أساسية في رؤيتي

فانتقال المنطقة من عشرات الملوك إلى ملك
أورارتي واحد كان تحولا في نظام الحكم لا استبدالاً
كاملاً للسكان

نايري والجذور الأرمنية

أضع شعوب نايري داخل تاريخ أصول الأرمن
لأنها عاشت في أجزاء واسعة من الأرض التي
أصبحت لاحقاً مركز أرمينيا القديمة

كانت هذه الشعوب موجودة قبل ظهور اسم أرمينيا
وقبل انتشار اللغة الأرمنية بوصفها اللغة الغالبة

ثم دخلت ممالكها وسكانها في الدولة الأورارتية

وعندما سقطت أورارتو بقيت الجماعات المحلية في
قراها ومدنها ووديانها

وشاركت في تكوين المجتمع الأرمني اللاحق

لا أقول إن اسم نايري يعني أرمينيا

ولا أقول إن كل ملك من ملوك نايري كان أرمينيا
بالمعنى اللغوي المعروف لاحقا

لكنني أقول إن شعوب نايري تقع داخل السلسلة
السكانية التي سبقت الأرمن فوق الأرض نفسها

إنها ليست شعوبا غريبة اختفت من التاريخ

أصبحت جزءا من سكان أورارتو ثم دخل أحفادها
في تكوين الشعب الأرمني القديم

ومن منظوري فإن تجاهل نايري يجعل تاريخ
الأرمن يبدأ متأخرا ويقطعهم عن إحدى أهم طبقاتهم
القديمة

خلاصة الفصل الرابع

توصلت إلى أن نايري لم تكن دولة واحدة في بدايتها

كانت عالما من الممالك الجبلية المستقلة التي امتدت
في أعالي دجلة والفرات وحول بحيرة وان
والمناطق المجاورة

تحدثت النصوص الآشورية عن عشرات الملوك
والمدن والقلاع والتحالفات

وكشفت عن مجتمع سياسي متجزئ لكنه قادر على
المقاومة والاتحاد عند الخطر

كما توصلت إلى أن أورواتري ونايري كانا اسمين
قديمين لمجالات متداخلة في المرتفعات قبل قيام
أورارتو

ومع ازدياد الضغط الآشوري بدأت القيادة السياسية
تتوحد

ظهر أرامي ثم ساردوري الأول وتحولت الممالك
المتفرقة إلى دولة أورارتية مركزية عرفت في لغتها
باسم بيانيلي

أرى أن شعوب نايري حملت جانبا من الإرث
الهوري الأورارتي وأنها شكلت القاعدة البشرية
والسياسية التي قامت فوقها أورارتو

وبقاء هذه القاعدة بعد سقوط أورارتو جعلها جزءا
من الأصول السكانية والحضارية للشعب الأرمني
القديم

وفي الفصل الخامس سأنتقل إلى قيام مملكة أورارتو
وسأبحث في تأسيسها وعاصمتها توشبا ونظامها
السياسي والعسكري وحدودها وتحولها إلى أقوى
دولة عرفت المرتفعات قبل ظهور أرمينيا القديمة
الفصل الخامس

قيام مملكة أورارتو

أصل في هذا الفصل إلى المرحلة التي تحولت فيها
ممالك المرتفعات المتفرقة إلى دولة مركزية عرفت
في لغتها باسم بيانيلي وعرفها الآشوريون باسم
أورارتو

لم تقم أورارتو فوق أرض خالية

سبقتها شعوب نايري وأورواتري والمجتمعات
الجبلية التي عاشت حول بحيرة وان وفي أعالي
دجلة والفرات والمناطق الممتدة نحو أورميا وأراس

امتلكت هذه المجتمعات مدنا محصنة وحكاما محليين
وجيوشا وموارد زراعية وحيوانية

لكنها افتقرت زمنا طويلا إلى سلطة واحدة تجمعها

أرى أن قيام أورارتو كان نتيجة تطور داخلي حدث
داخل هذه المجتمعات تحت ضغط الصراع المستمر
مع آشور

لم يخلق الآشوريون الدولة الأورارتية

لكن حملاتهم المتكررة جعلت الاتحاد العسكري
والسياسي ضرورة لا يمكن تأجيلها

من الممالك المتفرقة إلى القيادة الموحدة

تحدثت النصوص الآشورية القديمة عن عشرات
الملوك في نايري

ثم تغيرت الصورة في القرن التاسع قبل الميلاد

بدأت النصوص تتحدث عن ملك أورارتي واحد
يقود أكثر من مدينة ويواجه الجيش الآشوري

هذا التحول من عشرات الحكام إلى قائد واحد هو
العلامة الأولى على ولادة الدولة

لم يحدث التوحيد في يوم واحد

بدأ بتحالفات بين الممالك ثم بسيطرة مركز سياسي
قوي على المراكز الأخرى

وكانت النتيجة ظهور ملكية قادرة على جمع الرجال
والخيول والماشية والمعادن والمحاصيل داخل نظام
واحد

أرامي

كان أرامي أول حاكم أورارتي يرد اسمه بصورة
واضحة في حوليات شلمنصر الثالث

واجه الحملات الآشورية خلال القرن التاسع قبل
الميلاد

وذكرت النصوص مدينتين ملكيتين ارتبطتا به هما
سو غونيا وأرزشكون

إن وصفهما بالمدينتين الملكيتين يدل على أن سلطة
أرامي لم تكن سلطة زعيم قبيلة صغيرة

كان يملك أكثر من مركز سياسي وعسكري
ويستطيع جمع جيش من مناطق متعددة

هاجم شلمنصر الثالث سوغونيا في بداية عهده ثم
هاجم أرزشكون بعد ذلك

وأعلن تدمير المدن وإحراقها والاستيلاء على الغنائم

لكن أرامي لم يختف بعد سقوط مدينة واحدة

استمر اسمه في النصوص الآشورية خلال حملات
لاحقة

وهذا يعني أن مملكته كانت أوسع من مركز واحد
وأنها امتلكت قدرة على إعادة تنظيم المقاومة

لا أمتلك دليلا يثبت وجود صلة عائلية مباشرة بين
أرامي وساردوري الأول

ولهذا لا أجعلهما من سلالة واحدة من دون نص

لكنني أرى أن أرامي يمثل مرحلة التوحيد الأولى
بينما يمثل ساردوري تأسيس الملكية الأورارتية
الراسخة

وتبين دراسة جامعة شيكاغو أن أرامي ظهر في
مواجهة عدة حملات آشورية وأن مدينتيه سوغونيا
وآرزشكون وصفتا في النصوص بأنهما مدينتان
ملكيتان معهد جامعة شيكاغو عن قيام أورارتو

مشكلة موقع آرزشكون

لم يحدد موقع آرزشكون بصورة نهائية

اقترحت لها مواقع مختلفة في شرق الأناضول
وحول بحيرة وان

لكن الأدلة لم تصل إلى درجة تسمح لي باعتبار
أحدها حقيقة نهائية

إن فقدان موقع العاصمة الأولى لا يلغي وجودها
التاريخي

فالنصوص الآشورية تؤكد أنها كانت مدينة ملكية
مهمة ارتبطت بأرامي

وقد يكون تدميرها أو ضعف موقعها أحد الأسباب
التي دفعت الدولة اللاحقة إلى اختيار توشبا مركزا
أكثر أمنا وقوة

ساردوري الأول

ظهر ساردوري الأول ابن لوتيري بعد مرحلة
أرامي

ومعه انتقلت أورارتو إلى طور جديد من التنظيم والاستقرار

يعد ساردوري مؤسس السلالة الملكية التي حكمت الدولة خلال عصر توسعها الكبير

اختار توشبا عند صخرة وان مركزا للحكم وأقام فيها منشآت دفاعية وترك نقوشا ملكية

استخدم ساردوري اللغة الأكادية في أقدم نقوشه المعروفة

واستعمل ألقابا ملكية تأثرت بالصياغة الآشورية

لقب نفسه بالملك العظيم والملك القوي وملك نايري والملك الذي لا نظير له

لا أرى في استخدام الأكادية دليلاً على أصل أكادي
للدولة

كانت الأكادية لغة دولية ولغة كتابة ملكية معروفة
في الشرق الأدنى

استخدمها ساردوري ليعلن وجود مملكته بلغة يفهمها
خصومه وجيرانه

ثم ظهرت اللغة الأورارتية في النقوش الملكية
اللاحقة وأصبحت لغة الدولة المميزة

أرى أن ساردوري فهم قوة النموذج الآشوري
واستفاد من أدواته من دون أن يتحول إلى تابع له

أخذ أسلوب النقش وبعض الألقاب وتقنيات البناء
العسكري ثم وضعها في خدمة دولة جبلية مستقلة
ذات لغة وديانة ومصالح خاصة بها

وتشير الدراسات إلى أن ساردوري أسس سلالة
استمرت أجيالا وأن السيطرة على توشبا أصبحت
جزءا أساسيا من شرعية الملوك الأورارتيين دراسة
جامعة شيكاغو عن الملكية الأورارتية

توشبا

أقيمت توشبا على صخرة مرتفعة عند الساحل
الشرقي لبحيرة وان

منحها موقعها قدرة دفاعية كبيرة

كانت الصخرة تشرف على السهل والبحيرة والطرق
المؤدية إلى المناطق المجاورة

وسمحت البحيرة بالاتصال بين مواقع متعددة حولها

أما الجبال والممرات المحيطة فوفرت خطوط دفاع
طبيعية ضد الجيوش القادمة من الجنوب

لم تكن توشبا قلعة عسكرية فقط

أصبحت مركز الملك والإدارة والعبادة والتخزين
وإعلان السلطة

نقشت النصوص على الصخور والأحجار حتى تبقى
أعمال الملوك أمام السكان والأجيال اللاحقة

وكان لقب سيد توشبا من الألقاب المهمة التي حملها
ملوك أورارتو

إن ارتباط الملك بالعاصمة يدل على أن توشبا كانت
رمزا لوحدة الدولة

أرى أن اختيارها أنهى مرحلة التنقل بين المراكز
الملكية

أصبحت المملكة تملك قلبا سياسيا ثابتا تنطلق منه
الحملة والأوامر والمشاريع

اسم أورارتو واسم بيانيلي

استخدم الآشوريون اسم أورارتو للدولة الواقعة
شمالهم

أما ملوك المملكة فكانوا يسمون بلادهم بيانيلي

ويظهر اسم بيانيلي في النقوش الأورارتية بوصفه
الاسم الداخلي للمملكة

إن وجود اسم داخلي وآخر خارجي أمر معروف في
تاريخ الشعوب

فقد يعرف الجيران دولة باسم بينما يستخدم سكانها
اسما مختلفا

لا يجوز أن أعتبر هذا الاختلاف دليلا على وجود
دولتين منفصلتين في مرحلة المملكة الموحدة

كانت أورارتو وبيانيلى تسميتين للدولة نفسها من
زاويتين لغويتين وسياسيتين مختلفتين

واستخدم ملوكها أيضا لقب ملك نايري في بعض
النقوش المكتوبة بالأكادية

وبذلك جمعوا بين اسم المملكة الجديدة وبين الإرث
السياسي للبلاد الجبلية القديمة

اللغة الأورارتية

مع خلفاء ساردوري ظهرت اللغة الأورارتية
بصورة واضحة في النقوش الملكية

كانت تكتب بالخط المسماري المقتبس من بلاد
الرافدين

لكنها لم تكن لغة سامية أو هندية أوروبية

كانت تنتمي إلى الفرع الحوري الأورارتي وكان
أقرب لسان معروف إليها هو الحورية

أعد هذه الحقيقة من أقوى الأدلة في الكتاب

فالدولة التي قامت في قلب المرتفعات استخدمت لغة
تنحدر من العائلة اللغوية نفسها التي انتمت إليها
الحورية

لا يعني هذا أن الأورارتية كانت نسخة مطابقة
للحورية

فقد تطورت كل لغة في بيئة وزمن مختلفين

لكن القرابة بينهما تكشف استمرار جماعات ناطقة
بلسان حوري أورارتي داخل المرتفعات

إنني أرى في قيام بيانيلي انتقالا سياسيا لهذا الفرع
من مرحلة الممالك المحلية إلى مرحلة الدولة
المركزية

إشبويني

خلف إشبويني والده ساردوري الأول

وفي عهده بدأت الدولة تخرج من مرحلة التأسيس
إلى مرحلة التوسع والتنظيم

ظهرت اللغة الأورارتية في النقوش بصورة أوسع

كما تطور النظام الديني الرسمي وأصبح الإله
خالدي في مقدمة آلهة المملكة

توسع نفوذ أورارتو نحو الجنوب الشرقي والمناطق
المحيطة ببحيرة أورميا وموساسير

كانت موساسير مركزا دينيا مهما لعبادة خالدي

وأصبحت العلاقة بها عاملا رئيسيا في شرعية
الملوك الأورارتيين

ارتبط عهد إشبويني أيضا بنقش كيلي شين الثنائي
اللغة المكتوب بالأورارتية والأكادية

يمثل النقش دليلا على استخدام اللغتين في إعلان
أعمال الملك وعلى امتداد النفوذ الأورارتي نحو
الممرات الجبلية الواقعة جنوب بحيرة أورميا

لا أفهم إدخال خالدي إلى رأس مجمع الآلهة بوصفه
إلغاء كاملا للموروث الحوري

فالإ جانب خالدي استمر تيشيبا إله العاصفة
وشيفيني إله الشمس

وكان تيشيبا مرتبطا بصورة واضحة بتشوب
الحوري

أرى أن الدولة نظمت المعتقدات القديمة وأعادت
ترتيبها داخل مجمع رسمي يخدم الوحدة السياسية
الجديدة

خالدي وشرعية الملك

أصبح خالدي الإله الأعلى في النظام الملكي
الأورارتي

نسب الملوك انتصاراتهم إليه وأقاموا المعابد
والقرايين باسمه

وكان الجيش يخرج إلى الحرب بإرادته كما
تصورها النقوش

لم يكن الدين منفصلا عن الدولة

منح خالدي الملك شرعية قيادة البلاد وإخضاع
المدن وبناء القلاع

وأصبحت المعابد مراكز دينية واقتصادية تخزن فيها
الثروات والقرايين

لكن وجود خالدي في رأس المجمع لا يلغي الآلهة
الأخرى

احتفظ تيشيبا وشيفيني بمكانتهما وظهرت آلهة محلية
كثيرة داخل قائمة العبادة الأورارتية

وهذا يكشف أن المملكة جمعت تقاليد مناطق متعددة
داخل نظام واحد

مينوا

شارك مينوا والده إشبويني في الحكم خلال مرحلة
من حياته ثم أصبح ملكا مستقلا

وفي عهده تحولت أورارتو إلى دولة واسعة ومنظمة

قاد حملات نحو الشمال والغرب والجنوب الشرقي

وثبت السيطرة على طرق وممرات مهمة

كما بنى القلاع والمدن والمعابد والقنوات وترك
عددا كبيرا من النقوش

لم يكن توسع مينووا مجرد غزو عسكري

كان يربط المناطق الجديدة بالدولة من خلال إنشاء
مراكز محصنة وتعيين المسؤولين وتنظيم الزراعة
وتخزين المحاصيل

ومن أشهر أعماله القناة التي حملت اسمه ونقلت
المياه إلى منطقة توشبا

عرفت في تقاليد لاحقة باسم قناة شميرام

لكن النقوش الأورارتية تنسبها بوضوح إلى مينووا

أرى أن هذه القناة تقدم صورة دقيقة لطبيعة الدولة

فالملك لم يكن قائدا عسكريا فقط

كان مسؤولا عن تحويل الأرض وتوفير المياه
وزيادة الإنتاج وإمداد العاصمة والسكان

وتؤكد الدراسات المتعلقة بأنظمة الري الأورارتية
أن ازدياد المراكز الكبرى ارتبط بتكثيف الزراعة
وإنشاء قنوات ومنشآت مائية في حوض وان وسهل
أرارات دراسة أنظمة الري الأورارتية

حدود الدولة الناشئة

بدأت أورارتو في حوض بحيرة وان ثم توسعت
خلال عهدي إشبويني ومينوا نحو بحيرة أورميا
والمناطق الواقعة شمالا وغربا وجنوبا

لم تكن حدودها خطوطا ثابتة

كانت هناك مناطق تخضع مباشرة للملك وأخرى
تدفع الجزية أو ترتبط به من خلال حكام محليين

وقد تتغير السيطرة بعد حملة آشورية أو تمرد داخلي

كان قلب الدولة بين وان وأورميا ثم اتسع لاحقا نحو
سيفان وسهل أرات وأعالي الفرات

توضح موسوعة إيرانيكا أن مركز أورارتو كان في
المرتفعات بين بحيرات وان وأورميا وسيفان وأن
الدولة توسعت من الفرات غربا إلى مناطق واسعة
شرقا وشمالا وجنوبا موسوعة إيرانيكا عن أورارتو

القلاع والإدارة

اعتمدت أورارتو على شبكة من القلاع والمراكز
الإدارية

بنيت القلاع فوق التلال والصخور المشرفة على
السهول والطرق

احتوت على مخازن للحبوب والنبذ والزيت وعلى
منشآت دينية وإدارية وعسكرية

كانت تجمع المحاصيل من المناطق المحيطة
وتخزنها ثم توزعها عند الحاجة

كما وفرت الحماية للجنود والمسؤولين والسكان في
أوقات الحرب

سمحت هذه الشبكة للملك بإدارة مناطق بعيدة عن
توشبا

وكانت الطرق تربط القلاع بالعاصمة وبالمراكز
الإقليمية

إن تشابه خطط البناء وأحجام الحجارة وصيغ
النقوش يكشف وجود سلطة مركزية تفرض
معاييرها على أنحاء المملكة

لكنني لا أتصور أن جميع السكان عاشوا داخل
القلاع

كانت غالبية الناس تقيم في القرى والسهول والوديان
وتعمل في الزراعة والرعي والصناعة

أما القلعة فكانت مركز السيطرة على هذا المجتمع

الجيش الأورارتي

بنيت الدولة في بيئة صراع مستمر ولذلك احتل
الجيش مكانة أساسية

ضم الجيش المشاة والفرسان والعربات والقوات
المتخصصة في اقتحام المدن وحراسة الممرات

واستفاد من الخيول التي اشتهرت بها المرتفعات

كان الملك يقود الحملات أو ينسبها إلى سلطته
وإرادة الإله خالدي

لم يكن هدف الحملات دائماً ضم الأرض

استهدفت أحياناً الحصول على الرجال والماشية
والخيول والمعادن والمحاصيل

واستخدمت الدولة الأسرى والعمال في بناء القلاع
والقنوات واستصلاح الأراضي

لا أصف هذا النظام بلغة مثالية

كان قيام أورارتو مثل قيام الإمبراطوريات القديمة
مرتبطا بالحرب والإخضاع ونقل السكان

لكن الدولة لم تستمر بالقوة العسكرية وحدها

احتاجت إلى إدارة وإنتاج زراعي وطرق ومخازن
ونظام ديني يجمع المناطق المختلفة

أورارتو وآشور

قامت أورارتو في مواجهة القوة الآشورية وتعلمت
منها في الوقت نفسه

استفادت من الخط المسماري والألقاب الملكية
وبعض تقنيات البناء والتنظيم العسكري

لكنها تحولت إلى منافس خطير لآشور

لم تكن علاقتها بها علاقة تقليد بسيط

كانت علاقة صراع وتبادل وتأثير متبادل

رأى الآشوريون في أورارتو خطرا على طرق
التجارة ومناطق النفوذ في شمال سوريا والأناضول
وزاغروس

أما الأورارتيون فرأوا في آشور القوة التي تهدد
استقلال المرتفعات

ولهذا كان بناء القلاع وتوحيد الجيش والسيطرة على
الممرات جزءا من استراتيجيات البقاء

يصف متحف المتروبوليتان أورارتو بأنها إحدى
دول الألف الأول قبل الميلاد ذات اللغة والديانة
والثقافة المادية الخاصة بها وأنها ظهرت في
النصوص الآشورية بوصفها عدوا شماليا لآشور
متحف المتروبوليتان عن أورارتو

من الحوري إلى الأورارتي

أرى أن قيام أورارتو يمثل اللحظة التي تحول فيها
فرع من العالم الحوري القديم إلى دولة جبلية
مركزية جديدة

لم يحمل الأورارتيون اسم الحوريين ولم يكرروا
نظام ميتاني

لكن لغتهم تكشف أصلهم اللغوي المشترك

كما تكشف ديانتهم استمرار إله العاصفة وبعض
المفاهيم والطقوس القديمة

أما شعوب نايري فقد قدمت القاعدة السياسية
والسكانية التي وحدتها المملكة

تكونت أورارتو من هذا التفاعل بين الإرث الحوري
والمجتمعات الجبلية وتنظيم الدولة الجديد والتأثيرات
القادمة من آشور والأناضول و زاغروس

لا أبحث عن شعب نقي منعزل عن جيرانه

أبحث عن العمود الأساسي الذي منح الدولة لغتها
وخصوصيتها

وأجد أن هذا العمود حوري أورارتي

من الأورارتي إلى الأرمني

تكتسب أورارتو أهميتها في كتابي لأنها شكلت أول
دولة مركزية واسعة وحدث قسما كبيرا من
الجغرافيا التي أصبحت لاحقا موطن أرمينيا القديمة

بنت مدنا وقلاعا وطرقا وقنوات استمرت آثارها بعد
سقوط المملكة

كما أعادت توزيع السكان وربطت مناطق وان
وأورميا وسيفان وأراس داخل شبكة سياسية
واقتصادية واحدة

عندما سقطت الدولة لم تختف هذه الشبكة بالكامل
ولم يرحل جميع سكانها

بقيت المدن والقرى والأراضي الزراعية والطرق
والمياه وبقي السكان الذين عملوا فيها

دخلت هذه القاعدة البشرية في المرحلة التالية التي
ظهر فيها اسم أرمنيا

ولهذا أرى أن أورارتو ليست مجرد مملكة سبقت
الأرمن زمنيا

إنها إحدى الطبقات الأساسية التي تكون منها الشعب
الأرمني القديم

خلاصة الفصل الخامس

توصلت إلى أن أورارتو نشأت من توحيد ممالك
نايري وأورواتري تحت ضغط الصراع مع آشور

مثل أرامي مرحلة القيادة الموحدة الأولى

ثم أسس ساردوري الأول السلالة الملكية وجعل
توشبا مركز الدولة

وفي عهد إشبويني تطورت اللغة الرسمية والديانة
واتسع النفوذ نحو موساسير وأورميا

ثم حول مينوا المملكة إلى دولة منظمة تعتمد على
الجيش والقلاع والطرق والقنوات والإدارة المركزية

كانت أورارتو تعرف في لغتها باسم بيانيلي وكانت
لغتها تنتمي إلى الفرع الحوري الأورارتي

أرى في قيامها استمرار جزء من العالم الحوري
داخل المرتفعات وتطوره إلى نظام سياسي جديد

كما أرى أن سكانها ومؤسساتها ومدنها شكلوا قاعدة
أساسية دخلت لاحقاً في تكوين أرمينيا القديمة

وفي الفصل السادس سأنتقل إلى ملوك أورارتو
وسأدرس عهود أرامي وساردوري الأول وإشبويني

ومينوا وأرغيشتي الأول وساردوري الثاني وروسا
الأول وبقية الملوك وأتتبع توسع المملكة
وصراعاتها وتحولاتها حتى سقوطها
الفصل السادس

ملوك أورارتو

أدرس في هذا الفصل ملوك أورارتو لأن تاريخ
المملكة ارتبط بصورة مباشرة بأعمال ملوكها

فالنقوش الأورارتية كانت نقوشا ملكية في أغلبها

سجل فيها الملك اسمه واسم أبيه وألقابه وحملاته
وأعمال البناء والقنوات والمعابد والقرايين

ولهذا نعرف تاريخ الدولة من خلال أخبار الملوك
أكثر مما نعرفه من خلال حياة عامة السكان

لكنني لا أتعامل مع النقوش بوصفها سجلا محايدا

كتبها الملوك لتمجيد سلطتهم وإظهار انتصاراتهم
وتخويف خصومهم

وقد تخفي الهزائم والتمردات أو تصف إخضاع
مدينة وكأنه انتصار نهائي مع أن السيطرة عليها قد
تكون مؤقتة

أقارن لذلك بين النقوش الأورارتية والنصوص
الآشورية والآثار حتى أقدم صورة أقرب إلى الواقع

كما أتجنب وضع سنوات قاطعة لكل ملك لأن
التأريخ الدقيق لبعض العهود ما زال مختلفا عليه

أرامي

كان أرامي أول ملك أورارتي معروف بالاسم

وصلت أخباره من حوليات شلمنصر الثالث ولم
يعثر حتى الآن على نقش ملكي كتبه أرامي نفسه

ظهر في النصف الثاني من القرن التاسع قبل الميلاد
قائدا لدولة آخذة في التشكل

ارتبطت به مدينتا سوغونيا وأرزشكون اللتان
وصفتها النصوص الآشورية بأنهما مدينتان
ملكيتان

هاجم شلمنصر الثالث سوغونيا ثم أرزشكون وأعلن
إحراق المدن والاستيلاء على الغنائم

لكن أرامي استمر في المقاومة وظهر اسمه خلال
حملات لاحقة

أرى أن استمرار سلطته بعد سقوط مراكزه يكشف
أن الدولة لم تكن مرتبطة بمدينة واحدة

امتلك أرامي شبكة من المدن والقلاع والجماعات
التي قبلت قيادته أو دخلت تحت سلطته

ولا أعرف بصورة مؤكدة إن كان أرامي ينتمي إلى
السلالة نفسها التي ظهر منها ساردوري الأول

لا يوجد نص يذكر أن ساردوري كان ابنه أو قريبه

لذلك أتعامل مع أرامي بوصفه ممثل مرحلة التوحيد
الأولى لا بوصفه مؤسساً مؤكداً للسلالة اللاحقة

وقد أكدت دراسة حديثة من جامعة كامبريدج أن
وجود أرامي معروف من النصوص الآشورية
وحدها وأنه لم يترك نقوشاً معروفة باسمه دراسة
جامعة كامبريدج عن تأسيس أورارتو

ساردوري الأول

يمثل ساردوري الأول ابن لوتيبيري بداية السلالة الملكية التي يمكن تتبع نسبها من خلال النقوش

ظهر اسمه في النصوص الآشورية بصيغة قريبة من سيدوري

وجعل توشبا عند بحيرة وان مركزا ثابتا للدولة

ترك نقوشا باللغة الأكادية والخط المسماري الآشوري عند صخرة وان

لقب نفسه بالملك العظيم والملك القوي وملك نايري وملك الملوك

تكشف هذه الألقاب أنه لم يقدم نفسه حاكما لمدينة
واحدة

أعلن سيادته على الملوك المحليين الذين سبق أن
حكموا ممالك نايري

أرى أن لقب ملك الملوك يعكس عملية توحيد
الممالك الجبلية تحت قيادة ساردوري

فالحكام المحليون لم يختفوا جميعا في لحظة واحدة

تحول بعضهم إلى تابعين للملك المركزي وأصبحوا
يقدمون الرجال والخيول والموارد

كانت سيطرة ساردوري على توشبا نقطة تحول
حاسمة

امتلكت المملكة عاصمة محمية بالصخرة والبحيرة
والجبال

ومنها استطاع الملك مراقبة الطرق وتنظيم الدفاع
وبناء مؤسسات الحكم

لا تخبرني النقوش القليلة لساردوري عن جميع
تفاصيل إدارته

لكن استمرار السلالة من بعده يدل على أنه نجح في
إنشاء نظام سياسي أكثر ثباتاً من نظام أرامي

وتشير الدراسات إلى أن ساردوري كان أول حاكم
أورارتي ترك نقوشاً في توشبا وأن نقوشه كتبت
بالأكادية والأسلوب المسماري الآشوري جامعة
كامبريدج عن ساردوري الأول

إشبويني

خلف إشبويني والده ساردوري الأول

ومعه بدأت المملكة تستخدم اللغة الأورارتية في
نقوشها الملكية الكبرى

كان هذا التحول أكثر من تغيير في لغة الكتابة

أصبح للدولة صوتها الخاص بعد أن استخدم
ساردوري اللغة الأكادية في نقوشه الأولى

في عهد إشبويني اتخذ النظام الديني الرسمي شكلا
أكثر وضوحا

وضع الإله خالدي في مقدمة مجمع الآلهة
الأورارتية

وجاء بعده تيشيبا إله العاصفة وشيفيني إله الشمس

سجل نقش مهر قابوسي قائمة واسعة من الآلهة
والقرايين المخصصة لها

أرى في هذه القائمة محاولة لجمع الآلهة المحلية
لمناطق متعددة داخل نظام ديني واحد

لم تلغ الدولة جميع المعتقدات السابقة

اعترفت بعدد كبير من الآلهة ثم رتبها تحت قيادة
خالدي الذي أصبح مصدر شرعية الملك

امتد نفوذ إشبويني نحو الجنوب الشرقي وبحيرة
أورميا وموساسير

وحملت مسلة كيلي شين نصا أورارتيا وأكاديا
مرتبطا بإشبويني وابنه مينوا

كان الوصول إلى موساسير مهما لأن المدينة
احتضنت معبدا رئيسيا للإله خالدي

وهكذا ارتبط التوسع السياسي بشرعية دينية تمنح
الملك حق قيادة البلاد

تظهر نقوش كثيرة اسم إشبويني إلى جانب مينوا

وقد استخدم بعض الباحثين تعبير الحكم المشترك
لوصف هذه المرحلة

لكن الدراسة الحديثة تشير إلى أن مينوا لم يحمل
لقب الملك في النصوص المشتركة وأن إشبويني
احتفظ باللقب

لذلك قد تكون الغاية من ظهور الاسمين إعداد مينوا
للخلافة وضمان انتقال السلطة أكثر من وجود ملكين
متساويين في الحكم دراسة طقوس إشبويني ومينوا

مينوا

خلف مينوا والده إشبويني وحول المملكة إلى قوة
إقليمية واسعة

قاد حملات في اتجاهات متعددة وثبت النفوذ
الأورارتي حول بحيرة وان وشرقها وشمالها
وغربها

امتد نحو مناطق بحيرة أورميا وطرق زاغروس
وسهول أراس وأعلى الفرات

كما واجه ممالك محلية كانت تسيطر على الممرات
والموارد

لم يكتف مينوا بإعلان الانتصارات

أنشأ القلاع والطرق والقنوات والمراكز الإدارية

ومن أشهر أعماله القناة التي نقلت المياه إلى منطقة
توشبا

حملت القناة نقوشا تنسب بناءها إلى مينوا

وعرفت في تقاليد لاحقة باسم قناة شميرام

لكنني أعتمد على النقش الأورارتي الذي يثبت اسم
الملك المسؤول عن إنشائها

ساعدت القناة على ري الأراضي وإمداد العاصمة
والمناطق القريبة بالمياه

وأظهرت قدرة الدولة على تنظيم أعداد كبيرة من
العمال وتخطيط مشروع يمتد عبر تضاريس صعبة

أرى أن عهد مينوا نقل أورارتو من دولة تدافع عن
قلبها حول وان إلى دولة تصنع مجالها الاقتصادي
والعسكري

أصبحت القلاع مراكز لجمع المحاصيل وتخزينها
ومراقبة السكان والطرق

كما أصبحت النقوش الملكية أداة لإعلان سلطة
توشبا في المناطق البعيدة

أرغيشتي الأول

خلف أرغيشتي الأول والده مينوا خلال النصف
الأول من القرن الثامن قبل الميلاد

ويمثل عهده مرحلة التوسع الكبرى نحو الشمال

قأء حملات إلى سهل أراارات ووادي أراس
والمناطق المحيطة بآبل أراغاتس وبحيرة سيفان

أسس مآنة إريبوني في موقع يقع ضمن يريفان
الحالية

ويؤرخ تأسيسها عادة بعام سبعمئة واثنين وثمانين
قبل الميلاد اعتمادا على نقش أرغيشتي

كما أسس أرغيشتي آينيلي قرب أرم wulhr الحالية

كانت هذه المدن مراكز عسكرية وإدارية وزراعية

لم يكن تأسيسها مجرد بناء حصون

نقل أرغيشتي آاعات سكانية إلى المناطق الجديدة
وأقام الحقول والمآزن والمعابد

وربط سهل أرا رات بقلب المملكة في توشبا

سجل أرغيشتي أخبار حملاته في نقش طويل على
صخرة وان

تكشف حولياته عن تحرك الجيش في اتجاهات
متعددة وعن الحصول على الأسرى والماشية
والخيول

لكنني لا أتعامل مع أرقام الغنائم بوصفها إحصاءات
دقيقة دائما

كانت الأعداد جزءا من خطاب القوة الملكية

أما الدليل الأهم فهو وجود المدن والقلاع والنقوش
التي تثبت اتساع الدولة

أرى أن أرغيشتي صنع الأساس العمراني والسياسي
الذي ربط أورارتو بتاريخ أرمينيا اللاحق

فإريبوني وأرغيشتي خينيلي لم تختفيا من جغرافية
المنطقة

بقيت آثارهما جزءا من تاريخ سهل أرارات واستمر
اسماهما في الذاكرة التاريخية

وتؤكد موسوعة إيرانیکا أن أرغيشتي الأول احتل
السهل الواقع شمال جبل أرارات ونهر أراس وأقام
مراكز كبرى مثل إريبوني وأرغيشتي خينيلي
موسوعة إيرانیکا عن أورارتو

ساردوري الثاني

خلف ساردوري الثاني والده أرغيشتي الأول

وفي عهده بلغت أورارتو أوسع مراحل نفوذها
السياسي والعسكري

واصل التوسع في القوقاز الجنوبي وحوض سيفان
وأعالي الفرات

كما تدخل في المناطق الواقعة غرب المملكة ودخل
في صراع مباشر مع المصالح الآشورية

استطاع ساردوري أن يبني تحالفات مع قوى في
شمال سوريا والأناضول

وكان هذا التوسع يهدد طرق آشور ومناطق نفوذها
الغربية

قدم ساردوري نفسه ملكا قويا وترك نقوشا تسجل
حملاته وغنائمه وأعماله

لكن اتساع الدولة حمل معه نقاط ضعف

كانت المسافات بعيدة والمناطق خاضعة بدرجات
مختلفة

واحتاج الحفاظ عليها إلى جيش دائم وطرق وقلع
وموارد كبيرة

واجه ساردوري الثاني الملك الآشوري تغلات
فلاسر الثالث ضمن الصراع على شمال سوريا
والأناضول

وتعرض للتحالف الذي قاده لهزيمة كبيرة عام
سبعمئة وثلاثة وأربعين قبل الميلاد

لم تسقط أورارتو بعد هذه الهزيمة

لكنها فقدت جزءا من قدرتها على التدخل غربا
وأصبحت أكثر انشغالا بالدفاع عن قلبها

أرى أن عهد ساردوري الثاني يمثل ذروة الدولة
وبداية انكشاف حدود التوسع

لقد أصبحت أورارتو قوة تستطيع تحدي آشور لكنها
لم تستطع هزيمة جيش آشوري أعاد تنظيم نفسه
تحت قيادة قوية

روسا الأول

خلف روسا الأول ساردوري الثاني في مرحلة
صعبة

كانت المملكة بحاجة إلى إعادة تنظيم المناطق التي
تضررت بعد الهزيمة أمام آشور

واجه روسيا تمردات داخلية وضغطاً آشوريا وخطراً
قادماً من الجماعات المتحركة في الشمال

عمل على استعادة سلطة الدولة وبناء القلاع وتقوية
المناطق الشرقية والشمالية

كما أقام علاقات مع حكام محليين حول بحيرة
أورميا وموساسير

أصبحت موساسير في عهده مركز أزمة خطيرة

كان معبد خالدي فيها يمثل مصدراً للشرعية والهيبة
والثروة

لكن حاكمها أورزانا حاول الموازنة بين أورارتو
وآشور

استغل سرجون الثاني هذا الوضع وقاد حملته الثامنة
عام سبعمئة وأربعة عشر قبل الميلاد

تحرك الجيش الآشوري عبر مناطق زاغروس
وأورميا وضرب حلفاء روسا ثم وصل إلى
موساسير ونهب معبد خالدي

كانت خسارة المعبد ضربة دينية وسياسية كبيرة

فالنصر لم يكن عسكريا فقط

أراد سرجون أن يظهر أن الإله الذي يستند إليه ملك
أورارتو لم يستطع حماية معبده

تقول الرواية الآشورية إن روسا أصيب باليأس بعد
سماع الخبر وإن حياته انتهت بعد ذلك

لكنني لا أتعامل مع التفاصيل الدرامية في نص
سرجون بوصفها حقيقة مؤكدة

كتبت الرواية لتمجيد الملك الآشوري وإذلال خصمه

أستطيع إثبات الهزيمة ونهب موساسير

أما الطريقة الدقيقة التي مات بها روسا فلا يمكن
تثبيتها من الرواية الآشورية وحدها

لم تسقط أورارتو بعد حملة سرجون

وهذه حقيقة مهمة

فالدولة التي تصورها النص الآشوري وكأنها انتهت
استطاعت إعادة تنظيم نفسها والاستمرار زمنا
طويلا

أرغيشتي الثاني

خلف أرغيشتي الثاني والده روسا الأول

تولى الحكم بعد واحدة من أقسى الأزمات في تاريخ
المملكة

عمل على إعادة بناء السلطة وتجنب المواجهة
المباشرة مع آشور

ووجه نشاطه نحو المناطق الشرقية والشمالية

تكشف نقوشه عن حملات واتساع في اتجاه شمال
غرب إيران والمناطق القريبة من جبل سبلان

كما أقام منشآت وقلاعاً هدفت إلى تثبيت حضور
الدولة على الطرق الشرقية

أرى أن سياسة أرغيشتي الثاني اتسمت بالواقعية

لم يحاول استعادة النفوذ الغربي بالطريقة نفسها التي
اتبعها ساردوري الثاني

ركز على المناطق التي تستطيع الدولة حمايتها
وعلى إعادة بناء الاقتصاد والدفاع

استمرار الملكية بعد عام سبعمئة وأربعة عشر قبل
الميلاد يثبت أن حملة سرجون لم تدمر أورارتو

كانت ضربة قوية لكنها لم تزل مؤسسات الدولة
وسكانها وقدرتها على التعافي

روسا الثاني

خلف روسا الثاني أرغيشتي الثاني خلال القرن
السابع قبل الميلاد

ويعد من أعظم ملوك أورارتو في مجال البناء

ارتبط اسمه بإنشاء قلاع ومدن ومشاريع مائية كبيرة

ومن المراكز التي تنسب إلى عهده أيائيس على
الساحل الشرقي لبحيرة وان وتيشيبائيني في كارمير
بلور وباستام في شمال غرب إيران

كما ارتبطت مرحلة حكمه بمشاريع في روساخينيلي

تكشف هذه المنشآت أن المملكة ما زالت تمتلك
موارد وقدرة إدارية واسعة

كانت القلاع الجديدة مخططة بعناية وتحتوي على
معابد ومخازن وورش ومساكن إدارية

وفي أيانيس اكتشف معبد مكرس لخالدي ونقوش
وأسلحة وزخارف تكشف ثراء الفن الأورارتي

واجه روسيا الثاني عالما سياسيا متغيرا

ظهرت الجماعات الكيمرية والسكيثية في مناطق
الأناضول والقوقاز وإيران

كما ظلت آشور قوة كبرى في الجنوب

لم تكن العلاقة بين روسيا وآشور حربا دائمة

استخدم الدبلوماسية وتجنب المواجهة المباشرة في
بعض المراحل

وتذكر مصادر آشورية من القرن السابع قبل الميلاد
أن ملك أورارتو خاطب ملك آشور بلقب الأب في
سياق دبلوماسي

لا أفهم ذلك بوصفه خضوعا كاملا

كان استخدام لغة القراية السياسية وسيلة لتنظيم
المراتب والعلاقات بين الملوك

أرى أن قوة روسيا الثاني تظهر في قدرته على بناء
مراكز جديدة بعد أزمت القرن السابق

فلو كانت أورارتو قد انهارت بعد حملة سرجون لما
استطاعت تنفيذ هذه المشروعات الضخمة

وتذكر موسوعة إيرانيكا عددا من القلاع التي أسسها
روسيا الثاني لتثبيت سلطة الدولة ومواجهة الأخطار
القادمة من الشمال موسوعة إيرانيكا عن عهد روسيا
الثاني

ساردوري الثالث

ظهر بعد روسا الثاني ملك يحمل اسم ساردوري ابن
روسا

يعرف عادة باسم ساردوري الثالث

وصلت إلينا عنه نصوص أقل كثيرا من نصوص
الملوك السابقين

ويبدو أن أورارتو في عهده اتبعت سياسة حذرة تجاه
آشور

تذكر مراسلات آشورية علاقة دبلوماسية بين ملك
أورارتو وآشوربانيبال

إن قلة النقوش لا تعني بالضرورة أن الدولة اختفت

قد تعكس تغيرا في طريقة تسجيل الأعمال أو فقدان
النصوص أو تقلص الحملات الكبرى التي كانت
تنتج النقوش الانتصارية

لكنها تكشف أن تاريخ أورارتو أصبح أكثر غموضا
بعد منتصف القرن السابع قبل الميلاد

الملوك المتأخرون

تزداد الصعوبة عند ترتيب الملوك الذين ظهروا بعد
ساردوري الثالث

وصلت أسماء مثل روسا ابن إريمينا وساردوري
ابن ساردوري وروسا ابن روسا من نقوش على
الدروع والأختام والألواح والمنشآت

لكن أورارتو لم تترك قائمة ملكية كاملة تحدد
سنوات حكمهم وترتيبهم

ولهذا اختلف الباحثون في وضعهم داخل التسلسل
الزماني

كان روسا ابن إريمينا ملكا مهما وترك أعمالا دينية
وعمرانية

ارتبط اسمه بمنشآت في روساخينيلي وبنقوش تتعلق
بالمياه والعبادة

لكن موقعه الزمني الدقيق وعلاقته بروسا الثاني ما
زالا موضع نقاش

كما أن إريمينا معروف أساسا بوصفه والد روسا

ولا أملك دليلا حاسما على أنه حكم أورارتو بنفسه

ظهر أيضا ساردوري ابن ساردوري وروسا ابن
روسا في مواد إدارية وأختام

لكن ترتيبهم النهائي ليس مؤكدا

توضح دراسة موقع توبراك قلعة أن آثار روسا ابن
أرغيشتي وروسا ابن إريمينا ظهرت داخل الموقع
نفسه وأن تحديد الملك الذي أسس بعض منشآته ظل
موضع اختلاف بين المتخصصين دراسة جامعة
كامبريدج عن توبراك قلعة

لهذا لا أضع جدولا قطعيا للملوك المتأخرين

أذكر الأسماء التي تثبتها النقوش وأوضح مقدار
معرفتي بكل ملك

فالأمانة التاريخية تفرض علي ألا أحول الاحتمال
إلى حقيقة

أستطيع تتبع خط واضح من ساردوري الأول إلى
روسا الثاني عبر أسماء الآباء والأبناء

أما المرحلة اللاحقة فتحتاج إلى الحذر بسبب قلة
النصوص وتعدد الملوك الذين حملوا الأسماء نفسها

نهاية الملكية الأورارتية

اختفت أورارتو من المصادر تدريجيا خلال أواخر
القرن السابع وبداية القرن السادس قبل الميلاد

تعرضت المنطقة لتحولات كبرى رافقت ضعف
آشور وسقوطها وصعود الميديين والبابليين وحركة
السكيثيين والكيمرين

كما دمرت أو هجرت مراكز أورارتية كثيرة

لكنني لا أنسب سقوط المملكة إلى شعب واحد من
دون دليل قاطع

قد تكون النهاية نتيجة مجموعة من العوامل

الصراعات الداخلية والهجمات الخارجية وتغير
طرق التجارة وتفكك الإدارة المركزية

إن غياب نص أوراتي يروي نهاية الدولة يجعل
تحديد الحدث الأخير أمرا صعبا

أعرف أن المملكة اختفت سياسيا

لكنني لا أقبل أن اختفاء الملكية يعني اختفاء السكان

الملوك والدولة والمجتمع

تظهر سلسلة الملوك أن أورارتو لم تكن اتحادا
عابرا

استمرت الملكية قرونا وانتقلت في معظم مراحلها
من الأب إلى الابن

بنت السلالة عاصمة ومدنا وقلاعا ومعابد وقنوات
وشبكة إدارية واسعة

كما صنعت هوية سياسية جمعت المجتمعات الجبلية
تحت اسم بيلاني

كان الملك قائد الجيش ورئيس النظام الديني
وصاحب مشاريع البناء

لكن هذه الأعمال لم تكن ممكنة من دون الفلاحين
والحرفيين والجنود والكهنة والعمال والجماعات
المحلية

إن تاريخ أورارتو ليس تاريخ الملوك وحدهم

كانت قوة الملك قائمة على مجتمع واسع يحمل اللغة والثقافة ويعمل في الأرض ويحمي القلاع

ملوك أورارتو في تاريخ الأرمن

لا أصف ملوك أورارتو بأنهم ملوك أرمن بالمعنى اللغوي والسياسي الذي ظهر في العصور اللاحقة

فهم عرفوا أنفسهم ملوكا لبيانيلي وسادة لتوشبا وكتبوا باللغة الأورارتية

لكنني لا أفصلهم عن تاريخ الشعب الأرمني القديم

حكموا الأرض التي أصبحت مركز أرمينيا وبنوا
المدن التي دخلت في تاريخها وأداروا السكان الذين
شارك أحفادهم في تكوين المجتمع الأرمني

إن إريبوني وأرغيشتي خينيلي وتوشبا وتيشيبائي
ليست آثارا لحضارة غربية مرت فوق المنطقة ثم
اختفت

هي آثار طبقة سكانية وحضارية عميقة سبقت
ظهور الهوية الأرمنية بصورتها المعروفة وأسهمت
في تكوينها

ومن منظوري فإن الأرمن القدماء لم يرثوا الأرض
الأورارتية فقط

ورثوا جزءا كبيرا من سكانها وذاكرتها المحلية
وطرقها ومدنها وخبراتها الزراعية والعمرانية

خلاصة الفصل السادس

بدأت الملكية الأورارتية بأرامي الذي مثل مرحلة التوحيد الأولى

ثم أسس ساردوري الأول السلالة الراسخة وجعل توشبا مركز المملكة

وأدخل إشبويني اللغة الأورارتية إلى النقوش الملكية ونظم الديانة حول خالدي

ووسع مينوا الدولة وبنى القنوات والقلاع

ثم نقل أرغيشتي الأول النفوذ إلى سهل أرارات وأسس إريبوني وأرغيشتي خينيلي

وبلغت المملكة ذروة توسعها في عهد ساردوري الثاني قبل أن تتعرض لهزيمة أمام آشور

وأعاد روسا الأول تنظيم الدولة لكنه واجه حملة
سرجون الثاني ونهب موساسير

ثم استعاد أرغيشتي الثاني التوازن ووجه النشاط
نحو الشرق

وجاء روسا الثاني فقاد مرحلة بناء واسعة أثبتت
استمرار قوة أورارتو

بعد ذلك أصبحت أخبار الملوك أقل وضوحا وظهر
ساردوري الثالث وروسا ابن إريمينا وغيرهما قبل
اختفاء المملكة من التاريخ السياسي

أرى أن تغير الملوك وسقوط الدولة لم يقطع
الاستمرار السكاني

بقي المجتمع الذي صنع أورارتو فوق أرضه ودخل
في مرحلة جديدة من التحولات

وفي الفصل السابع سأنقل إلى اللغة الأورارتية
وصلتها بالهورية وسأدرس القرابة بينهما وأهم
خصائصهما وما تكشفه هذه القرابة عن الاستمرار
الهوري الأورارتي داخل الجذور القديمة للشعب
الأرمني

الفصل السابع

اللغة الأورارتية وصلتها بالهورية
اللغة بوصفها ذاكرة الشعوب

عندما أبحث في الصلة بين الحوريين والأورارتيين
لا أكتفي بتشابه الآثار أو تقارب المعتقدات أو
استمرار الاستيطان في الأرض نفسها. فاللغة تقدم
دليلاً آخر أكثر عمقا، لأنها تحتفظ في بنيتها بقواعد
قديمة لا تنتقل بسهولة من شعب إلى آخر.

أنطلق من أن اللغة الأورارتية لم تظهر فجأة في
منطقة بحيرة وان، بل خرجت من بيئة لغوية أقدم

كانت الحورية أبرز عناصرها. ولهذا فإن المقارنة بين الحورية والأورارتية لا تكشف مجرد كلمات متشابهة، بل تكشف نظامين لغويين ينتميان إلى أصل مشترك.

تؤكد دراسة جامعة كامبريدج عن اللغة الحورية أن الأورارتية هي اللغة المعروفة الوحيدة التي ثبتت قرابتها بالحورية، كما توضح أن الحورية كانت واسعة الانتشار في شمال بلاد الرافدين وشمال سورية وجنوب شرقي الأناضول منذ أواخر الألف الثالث قبل الميلاد. اللغة الحورية في جامعة كامبريدج

هذه القرابة اللغوية تمنح رؤيتي أساسا مهما. فالحوريون والأورارتيون لم يكونوا جماعتين منفصلتين التقت إحداهما بالأخرى مصادفة، بل كانتا مرحلتين تاريخيتين داخل عالم بشري وحضاري واحد امتد من شمال بلاد الرافدين إلى جبال زاغروس والمرتفعات الأرمنية.

اللغة الحورية القديمة

ظهرت الكلمات والأسماء الحورية في النصوص المسمارية منذ الألف الثالث قبل الميلاد. ثم أصبحت الحورية لغة مستخدمة في عدد واسع من المدن والممالك خلال الألف الثاني قبل الميلاد. ووصل حضورها إلى مملكة ميتاني وإلى مدن شمال سورية ومناطق الأناضول وبلاد الرافدين.

لم تكن الحورية لغة مملكة واحدة فقط. فقد انتشرت بين جماعات سكانية متعددة، وظهرت في أسماء الأشخاص والآلهة والمدن، كما استعملت في الرسائل والطقوس والنصوص الدينية والأدبية والإدارية.

تكمُن أهمية هذه الحقيقة في أن الانتشار الحوري لم يكن حركة سياسية مؤقتة، بل كان وجودا بشريا عميقا. وعندما ضعفت الممالك الحورية لم يختف السكان الذين كانوا يتحدثون الحورية، وإنما استمروا

داخل المناطق الجبلية وفي المجتمعات المحلية التي لم تسجل أخبارها دائماً في النصوص الملكية.

إن سقوط مملكة لا يعني موت شعبها، كما أن اختفاء اسم سياسي لا يعني اختفاء السكان الذين حملوا ذلك الاسم. لذلك أتعامل مع نهاية ميتاني وغيرها من الكيانات الحورية على أنها نهاية مرحلة سياسية، لا نهاية الوجود الحوري.

ظهور اللغة الأورارتية

ظهرت اللغة الأورارتية في النقوش الملكية بصورة واضحة منذ أواخر القرن التاسع قبل الميلاد، واستمر استخدامها حتى أواخر القرن السابع قبل الميلاد. وقد امتدت النقوش الأورارتية من منطقة بحيرة وان إلى أرمينيا الحالية وأذربيجان الإيرانية وشمال العراق ومناطق قريبة من الفرات.

كان مركز الدولة حول بحيرة وان، وكانت توشبا عاصمتها الكبرى. وتشير دراسة جامعة كامبريدج إلى أن اللغة الأورارتية كانت قريبة بصورة خاصة من الحورية القديمة، وأنها انفصلت عن أصلها المشترك مع الحورية في زمن أقدم من ظهور مملكة أورارتو نفسها. اللغة الأورارتية في جامعة كامبريدج

وهذا يعني أن مملكة أورارتو لم تخترع لغتها عند تأسيسها. كانت اللغة موجودة قبل الدولة، وكانت حاضرة بين جماعات سكانية عاشت في الجبال المحيطة ببحيرة وان ومناطق أعالي الزاب والمرتفعات المجاورة.

أرى أن الأورارتية تمثل استمرارا شماليا لإحدى لغات العالم الحوري القديم. ومع قيام الدولة أصبحت هذه اللغة لغة السلطة والقصور والنقوش الملكية. وهكذا انتقلت من بيئتها المحلية إلى لغة دولة قوية وحدت أقساما واسعة من المرتفعات.

الخط ليس هو اللغة

يجب أن أميز بين اللغة والخط الذي كتبت به. فقد استعمل الحوريون والأورارتيون الكتابة المسمارية، لكن استخدام الخط نفسه لا يعني بالضرورة أن لغاتهم كانت واحدة.

استعمل الأكاديون والحثيون والعيلاميون والحوريون والأورارتيون الخط المسماري، مع أن لغاتهم لم تكن جميعها من عائلة لغوية واحدة. فالخط وسيلة للكتابة، أما اللغة فهي نظام الأصوات والكلمات والقواعد التي يستعملها الناس في الكلام.

بدأ بعض ملوك أورارتو بكتابة نقوشهم باللغة الآشورية، ثم انتقلوا إلى استخدام اللغة الأورارتية في معظم النصوص الملكية. وقد أخذ الكتبة شكل العلامات المسمارية وطوعوه لكتابة لغتهم المحلية.

لذلك فإن إثبات القرابة بين الحورية والأورارتية لا يقوم على استعمال الخط المسماري، بل على المقارنة بين بنية اللغتين وقواعدهما وصياغة الكلمات والضمائر والأفعال.

البنية المشتركة بين الحورية والأورارتية

تقوم الحورية والأورارتية على إضافة اللواحق إلى أصل الكلمة. وتحمل كل لاحقة معنى معيناً يتعلق بالجمع أو الملكية أو الحالة النحوية أو اتجاه الفعل وعلاقته بأطراف الجملة.

قد تبدأ الكلمة باسم أو فعل قصير، ثم تضاف إليه عدة مقاطع مرتبة، فيتحول إلى بناء لغوي كامل. وهذا الأسلوب حاضر في اللغتين بصورة واضحة، كما أن ترتيب هذه اللواحق ومهامها يكشفان قرابة لا يمكن تفسيرها بمجرد الاحتكاك الثقافي.

تتشترك اللغتان كذلك في نظام نحوي يختلف عن النظام المعروف في العربية ومعظم اللغات الأوروبية. ففي الجملة التي تحتوي على فعل متعد يعامل فاعل الفعل بطريقة تختلف عن فاعل الفعل غير المتعد. وهذه السمة من العلامات المهمة التي تجمع الحورية والأورارتية.

وتعتمد اللغتان في الغالب على وضع الفعل في نهاية الجملة، كما تستعملان اللواحق أكثر من السوابق. وتظهر بينهما صلات في بناء الأسماء والضمائر وتصريف الأفعال وتحديد العلاقات بين الكلمات.

هذه التشابهات لا تقتصر على مفردات يمكن أن تكون قد انتقلت بالتجارة أو الحرب. إنها موجودة في قلب النظام اللغوي، ولذلك تدل على أصل مشترك.

الحورية والأورارتية لغتان قريبتان وليستا لغة واحدة

مع تأكّيدي على وحدة الجذور، لا أقول إن النص الحوري هو نفسه النص الأورارتي. فقد تطورت كل لغة خلال قرون طويلة، وظهرت بينهما اختلافات في الأصوات والمفردات وصيغ الجمع وبعض أشكال الأفعال والضمائر.

كانت الحورية نفسها تضم لهجات متعددة. فالحورية القديمة تختلف في بعض خصائصها عن اللغة التي ظهرت في رسالة ميتاني وفي نصوص حاتوشا. والأورارتيّة بدورها اتخذت مساراً مستقلاً قبل قيام المملكة الأورارتيّة بزمان طويل.

لهذا أصف الحورية والأورارتيّة بأنهما لغتان شقيقتان خرجتا من أصل لغوي مشترك. وقد حافظت الأورارتيّة على خصائص قديمة نجد شبيهاً لها في الحورية القديمة، بينما طورت خصائص أخرى خاصة بها.

هذا الاختلاف لا ينفي وحدة الأصل، بل يثبت أن الجماعات الحورية الأورارتيّة كانت موزعة على

مساحة واسعة. فاللغة تتغير عندما تتوزع الجماعات بين الجبال والسهول والوديان، وعندما تنشأ مراكز سياسية مختلفة وتزداد المسافة بينها عبر القرون.

حدود النصوص الأورارتية

معظم ما وصل إلينا من اللغة الأورارتية جاء من النقوش الملكية. تتحدث هذه النقوش عن الحملات العسكرية وبناء الحصون وشق القنوات وتأسيس المدن وتقديم القرابين للآلهة.

لهذا نعرف لغة الملوك والإدارة والحرب أكثر مما نعرف لغة الحياة اليومية. لا نمتلك عددا كافيا من الرسائل الشخصية أو القصص الشعبية أو الأحاديث التي كان يتبادلها الناس داخل البيوت والأسواق.

يعني ذلك أن معرفتنا بالمفردات الأورارتية ما زالت ناقصة. وقد تكون كلمات كثيرة استعملها السكان لم

تصل إلينا، لأن الملوك لم يحتاجوا إلى تسجيلها على جدران المعابد والقلاع.

كما لا أستطيع أن أفترض أن جميع سكان مملكة أورارتو كانوا يتحدثون لغة واحدة. فقد ضمت المملكة قبائل ومناطق متعددة، وربما استعملت داخلها لغات ولهجات مختلفة. كانت الأورارتية لغة الدولة والنخبة الحاكمة، لكن مساحة انتشارها اليومي بين عامة السكان لا يمكن تحديدها بصورة نهائية.

ما تثبته القرابة اللغوية

تثبت القرابة بين الحورية والأورارتية وجود استمرارية لغوية عميقة في المنطقة. وتبين أن قيام أورارتو لم يكن بداية منفصلة عن تاريخ الشعوب السابقة، بل كان إعادة تنظيم سياسي لعالم سكاني قديم ارتبط بالحوريين وشعوب نايري وسكان المرتفعات.

كما تثبت أن ثقافة أورارتو لم تكن مجرد تقليد
للآشوريين. أخذ الأورارتيون نظام الكتابة وبعض
الأساليب الملكية من جيرانهم، لكنهم كتبوا بلغة
محلية تنتمي إلى جذور المنطقة نفسها.

وأجد في ذلك دليلاً قوياً على أن السكان الذين أقاموا
أورارتو كانوا امتداداً لجماعات عاشت في هذه
البلاد منذ العصور الحورية. تغير اسم الدولة
واتسعت حدودها وتطورت إدارتها، لكن العنصر
البشري الأساسي ظل مرتبطاً بأرضه.

ما لا تستطيع اللغة إثباته وحدها

مع أهمية اللغة لا أجعلها الدليل الوحيد على هوية
الشعب. فالإنسان يستطيع أن يتبنى لغة جديدة من
دون أن يغير أصله السكاني. وقد تتخلّى جماعة
كبيرة عن لغتها القديمة بسبب قيام سلطة جديدة أو
انتشار دين جديد أو اختلاطها بجماعات أخرى.

لذلك لا أساوي بصورة آلية بين اللغة والدم أو بين اللغة والأصل البشري. تؤكد الدراسات الحديثة عن تنوع القوقاز أن التاريخ اللغوي والتاريخ السكاني ليسا شيئاً واحداً، وأن تحول لغة مجتمع لا يعني بالضرورة استبدال سكانه جميعاً. التنوع اللغوي في القوقاز

من هنا أميز بين الاستمرار السكاني والاستمرار اللغوي. قد يستمر السكان في أرضهم بينما تتغير لغتهم بالتدريج. وقد يحتفظون بدياناتهم وأسماء مناطقهم وعاداتهم وفنونهم حتى بعد تحولهم إلى لغة أخرى.

اللغة الأرمنية والتحول التاريخي

تتنمي اللغة الأرمنية إلى العائلة الهندوأوروبية، ولا تنحدر من الحورية أو الأورارتية من الناحية اللغوية. وهذه حقيقة يجب أن أثبتها بوضوح، لأنها

لا تتعارض مع فكرتي عن الاستمرار السكاني
والحضاري.

أنا لا أقول إن الأرمنية هي أورارتية متأخرة، ولا
أقول إن قواعد الأرمنية خرجت مباشرة من قواعد
الحورية. ما أقوله هو أن انتشار الأرمنية في
المرتفعات حدث بين سكان لم يبدأ تاريخهم في
اللحظة التي ظهرت فيها اللغة الأرمنية.

عاش في هذه الأرض حوريون وأورارتيون
وجماعات من شعوب نايري، ثم دخلت عناصر
لغوية وثقافية جديدة. وبمرور الزمن أصبحت
الأرمنية اللغة الغالبة، بينما اندمج السكان الأقدم في
المجتمع الجديد وأسهموا في تكوينه.

تشير موسوعة إيرانيكا إلى أن الأورارتية كانت قد
تراجعت أمام الأرمنية في جنوب القوقاز بحلول
منتصف الألف الأول قبل الميلاد، مع احتمال بقائها
في بعض المناطق الشمالية الغربية مدة أطول.
اللغات غير الإيرانية في موسوعة إيرانيكا

لم يكن هذا التحول حدثاً وقع في يوم واحد. جرى خلال أجيال طويلة، وفي ظل سقوط أورارتو وظهور قوى جديدة وازدياد الاتصال بين سكان المرتفعات والجماعات المتحدثة بلغات هندوأوروبية.

ربما بدأ الناس باستعمال لغتين في بعض المناطق، ثم أصبحت الأرمنية لغة التواصل الأوسع، وبعد ذلك تحولت إلى لغة المجتمع كله. لكن أبناء السكان الحوريين والأورارتيين لم يكتفوا عند تغير لغتهم، بل أصبحوا جزءاً أساسياً من الشعب الذي ظهر لاحقاً باسم الأرمن.

معنى الشعب الواحد في رؤيتي

عندما أقول إن الشعب الأرمني القديم والحوري شعب واحد، فأنا أقصد وحدة الجذور السكانية

والحضارية واستمرار الإنسان في الأرض، ولا أقصد أن اللغة بقيت ثابتة آلاف السنين.

أرى خطأ تاريخيا يبدأ بالمجتمعات الحورية، ويمر بشعوب نايري ومملكة أورارتو، ثم يدخل في تكوين أرمينيا القديمة. لم يتحرك هذا الخط بطريقة مستقيمة، بل تعرض للحروب والهجرات والتحويلات اللغوية والسياسية. ومع ذلك لم ينقطع الوجود البشري الأساسي في المرتفعات.

تمثل الحورية المرحلة اللغوية والثقافية القديمة لهذا العالم، وتمثل الأورارتية استمرار إحدى فروعه داخل دولة مركزية قوية، ثم تمثل الأرمنية لغة المرحلة الجديدة التي ورثت الأرض والسكان وجزءا كبيرا من الذاكرة الحضارية.

لا أحتاج إلى الادعاء بأن الأرمنية خرجت لغويا من الحورية لكي أثبت استمرار الشعب. إن تغير اللغة ظاهرة معروفة في تاريخ الشعوب. وقد تغيرت

لغات جماعات كثيرة من دون أن تغادر أوطانها أو
تفقد جميع عناصر هويتها السابقة.

الخلاصة

تكشف اللغة الأورارتية عن الصلة المباشرة بين
أورارتو والعالم الحوري. فالتشابه في القواعد وبناء
الكلمات وتصريف الأفعال لا يترك مجالاً لاعتبار
القرباة مجرد تأثير ثقافي عابر.

كانت الحورية والأورارتية لغتين شقيقتين من أصل
واحد، لكنهما تطورتا بصورة مستقلة. وعندما
اختفت اللغة الأورارتية لم يختف سكان أورارتو، بل
دخلوا في مرحلة تاريخية جديدة انتشرت فيها اللغة
الأرمنية.

وهنا أصل إلى النتيجة الأساسية في هذا الفصل. إن
اختلاف اللغة الأرمنية عن الحورية والأورارتية لا
ينفي الاستمرار السكاني، بل يكشف حجم التحول

الذي مرت به شعوب المرتفعات. فاللغة يمكن أن تتغير، والدولة يمكن أن تسقط، والاسم السياسي يمكن أن يختفي، لكن السكان قد يستمرون حاملين في ثقافتهم وديانتهم وفنونهم وذاكرتهم آثار المراحل السابقة.

وفي الفصل التالي أنتقل إلى الديانة الحورية الأورارتية، لأبحث في الآلهة والطقوس والمعابد والمراكز المقدسة، ولأوضح كيف انتقلت عناصر دينية حورية إلى أورارتو ثم بقي جزء منها في الموروث الأرمني القديم.

الفصل الثامن

الديانة الحورية الأورارتية

أصول الأرمن من منظور حوري أورارتي

الدين بوصفه ذاكرة حضارية

بعد أن تناولت في الفصل السابق القرابة بين اللغتين الحورية والأورارتية، أنتقل الآن إلى الديانة، لأنها تمثل واحدا من أعمق أشكال الذاكرة التي تحملها الشعوب معها عبر العصور.

قد تسقط دولة وتختفي لغتها الرسمية، لكن أسماء الآلهة والجبال المقدسة والينابيع والطقوس والمواسم الدينية قد تستمر داخل المجتمع زمنا أطول. وقد تتغير أسماء هذه العناصر أو تندمج بعقائد جديدة، ومع ذلك تبقى جذورها القديمة حاضرة في ذاكرة الأرض والسكان.

أرى أن دراسة الديانة الحورية الأورارتية تساعدني على فهم الطريق الحضاري الذي انتقلت عبره معتقدات سكان شمال بلاد الرافدين والمرتفعات الأرمنية من العصر الحوري إلى العصر الأورارتي. كما تساعدني على تفسير كيفية استمرار بعض الصور والرموز المقدسة بعد سقوط أورارتو وظهور المرحلة الأرمنية.

لا أتعامل مع الديانة الحورية والأورارتية على أنهما نظام واحد متطابق. فقد امتلك كل عصر آلهته ومراكزه المقدسة وتنظيمه السياسي. لكنني أجد بينهما صلات واضحة في أسماء بعض الآلهة ووظائفها وفي تقديس الجبال والعواصف والشمس والخصوبة وفي العلاقة بين الملك والسلطة الإلهية.

الطبيعة والإنسان في العقيدة الحورية

نشأت الديانة الحورية في بيئة تجمع بين الجبال والسهول والأنهار ومناطق الزراعة والرعي. ولهذا ارتبطت آلهتها بالقوى الطبيعية التي كانت تؤثر مباشرة في حياة الإنسان.

لم تكن العاصفة عند الحوريين مجرد ظاهرة مناخية. كانت تحمل المطر الذي يحيي الأرض، كما كانت تحمل الرعد والبرق والسيول التي قد تدمر المحاصيل والمساكن. ولهذا احتل إله العاصفة مكانة مركزية داخل العقيدة الحورية.

كما ظهرت آلهة للشمس والقمر والحب والحرب والخصوبة والأنهار والجبال والعالم السفلي. ولم يكن هذا التعدد الديني نتيجة فوضى، بل كان انعكاساً لتعدد وظائف المجتمع والحياة والطبيعة.

كل مدينة أو منطقة استطاعت أن تمنح أهمية خاصة
لإله معين، لكن عددا من الآلهة أصبح معروفا في
معظم المناطق التي عاش فيها الحوريون. وقد ساعد
انتشار الحوريين من زاغروس وشمال بلاد الرافدين
إلى سورية والأناضول على انتقال عقيدتهم إلى
شعوب وممالك مجاورة.

تیشوب سيد العاصفة

احتل تیشوب مكانة رفيعة في الديانة الحورية. كان
إله العاصفة والرعد والمطر، وأصبح في كثير من
التقاليد الحورية سيد الآلهة وحامي النظام والملكية.

ارتبط تیشوب بالجبال، لأن قممها العالية كانت
المكان الذي تتجمع حوله الغيوم وتظهر منه
العواصف. وكانت صورة الإله الواقف فوق جبل أو
فوق حيوان قوي تعبر عن سيطرته على الطبيعة.

لم تكن قوة تيشوب قوة مدمرة فقط. كانت الأمطار التي يرسلها ضرورية للزراعة ونمو الحبوب وامتلاء الأنهار والينابيع. لذلك جمع هذا الإله بين القوة والحماية والخصوبة.

انتشرت عبادته من مناطق الحوريين الشرقية إلى شمال سورية والأناضول. وعندما ازداد النفوذ الحوري داخل الدولة الحثية دخل تيشوب إلى الديانة الحثية وأصبح من أبرز آلهتها. وهذا الانتشار يدل على قوة الحضارة الحورية وقدرتها على التأثير في الممالك المجاورة.

خيبات سيدة السماء

ارتبطت الإلهة خيبات بتيشوب وأصبحت زوجته داخل عدد من التقاليد الحورية. وقد حظيت بمكانة كبيرة، ولا سيما في المناطق الغربية من العالم الحوري وفي كيزواتنا وشمال سورية.

مثلت خيبات صورة الإلهة الملكية والأم الحامية.
وظهرت في الفن الديني برفقة تيشوب وأفراد
عائلتهما الإلهية.

كان ابنهما شارروما من الآلهة المهمة، وقد ارتبط
بالجبال والحماية. وتظهر الأسرة الإلهية في بعض
النقوش والواجهات الصخرية وكأنها صورة سماوية
للأسرة الملكية على الأرض.

أرى أن حضور العائلة الإلهية يعكس طبيعة
المجتمع القديم، حيث كانت الأسرة أساس الاستمرار
والسلطة والوراثة. وكما كان الملك ينقل الحكم إلى
ابنه، كانت الأساطير تقدم عالما إلهيا يقوم على
علاقات النسب والأبوة والأمومة.

شاوشكا إلهة الحب والحرب

كانت شاوشكا من أبرز الإلهات الحوريات. جمعت
في طبيعتها بين الحب والخصوبة والحرب والقوة

والحماية. وقد ارتبطت في بعض المناطق بالإلهة
عشتار، لكن شخصيتها احتفظت بخصائص حورية
مميزة.

يكشف الجمع بين الحب والحرب عن نظرة قديمة
إلى الحياة بوصفها قائمة على قوتين متلازمتين. قوة
تمنح الحياة وتحمي الولادة والخصوبة، وقوة تواجه
الأعداء والمخاطر.

انتشرت عبادة شاوشكا في مدن عديدة، ووصلت إلى
البلاط الحثي. كما ظهرت أسماؤها وصفاتها داخل
النصوص الطقسية والأساطير وقوائم القرايين.

إن انتشار عبادتها خارج المناطق الحورية يبين أن
التأثير الحوري لم يكن عسكريا فقط، بل كان دينيا
وفنيا وثقافيا أيضا.

كوماربي وذاكرة الأجيال الإلهية

احتل كوماربي موقعا مهما في الأساطير الحورية.
وصف بأنه أبو الآلهة، وارتبطت به قصص
الصراع على السيادة في السماء.

تحدث أساطير كوماربي عن تعاقب أجيال الآلهة
وانتقال الحكم من جيل إلى آخر. ولم تكن هذه
القصص مجرد خيال ديني، بل كانت تعكس فهم
الإنسان القديم للتاريخ والملكية والصراع السياسي.

كما تكشف هذه الأساطير أن الحوريين امتلكوا أدبا
دينيا وفكريا غنيا. وقد وصلت أجزاء مهمة منه من
خلال النصوص التي حفظها الكتبة الحثيون.

أرى في هذه النصوص دليلا على أن الحوريين لم
يكونوا قبائل بلا ثقافة مكتوبة، بل أصحاب
تصورات معقدة عن نشأة العالم والسلطة والمصير
وعلاقة الإنسان بالقوى الإلهية.

الشمس والقمر

عبد الحوريون إله الشمس شيميغي وإله القمر
كوشوخ. وكان لكل منهما دور في تنظيم الزمن
وحماية النظام ومراقبة العهود.

ارتبط القمر بحساب الأشهر والمواسم، بينما
ارتبطت الشمس بالنور والعدالة ورؤية الأعمال التي
يقوم بها البشر.

كانت مراقبة الشمس والقمر ضرورية لتنظيم
الزراعة والطقوس ومواعيد القرايين. لذلك لم يكن
الدين منفصلاً عن الحياة اليومية، بل كان جزءاً من
التقويم والعمل والإدارة.

ومن هذه البيئة الدينية انتقلت عناصر كثيرة إلى
المجتمعات المجاورة. كانت الآلهة تغير أسماءها
أحياناً، لكنها تحتفظ بجزء من وظيفتها ورموزها.

انتقال العالم الديني إلى أورارتو

عندما ظهرت مملكة أورارتو لم تبدأ ديانتها من فراغ. فقد قامت في منطقة عاشت فيها جماعات ذات جذور حورية وشعوب نايري وسكان محليون امتلكوا معتقداتهم القديمة.

أعادت الدولة الأورارتية تنظيم هذا التراث الديني داخل نظام رسمي يخدم وحدة المملكة. أصبحت للآلهة مراتب محددة، وحددت لها القرايين، وربطت المعابد بالملك والجيش والإدارة.

أرى أن هذا التحول يشبه التحول الذي حدث في اللغة والسياسة. فقد أخذت الدولة مواد قديمة من سكان المنطقة ثم أعادت صياغتها داخل بنية ملكية مركزية.

كان على ملوك أورارتو أن يوحدوا مناطق وقبائل متعددة. لذلك احتاجوا إلى عقيدة رسمية تمنح الملك

شرعية دينية وتجعل انتصاراته العسكرية تعبيراً عن
إرادة الآلهة.

خالدي سيد أورارتو

أصبح خالدي الإله الأعلى في الدولة الأورارتية.
ارتبط بالملك والحرب والنصر وحماية المملكة،
وافتح الملوك كثيراً من نقوشهم باسمه.

لم يكن خالدي نسخة من تيشوب. كانت له شخصية
أورارتية خاصة، كما ارتبط مركز عبادته بمدينة
موساسير الواقعة إلى الجنوب الشرقي من بحيرة
وان.

رفع الملك إشبويني ومن بعده ابنه مينوا مكانة
خالدي وجعله في قمة النظام الديني الرسمي. ومنذ
ذلك الوقت أصبح النصر العسكري ينسب إلى قوة
خالدي، بينما يقدم الملك نفسه منفذا لإرادته.

كانت معابد خالدي تحتوي على أسلحة ودروع
ورماح وغنائم عسكرية قدمها الملوك للإله بعد
انتصاراتهم. وبذلك أصبح المعبد مكانا دينيا وخزانة
ملكية وسجلا للنصر في الوقت نفسه.

لم تكن العلاقة بين خالدي والملك علاقة عبادة فقط،
بل كانت أساسا من أسس الحكم. فالملك يحارب باسم
خالدي، ويبني المدن باسمه، ويقدم له الغنائم
والقرايين، ثم يسجل أعماله على الصخور وجدران
المعابد.

عندما هاجم الملك الآشوري سرجون الثاني مدينة
موساسير سنة سبعمئة وأربع عشرة قبل الميلاد،
نهب معبد خالدي واستولى على كنوزه. لم يكن
الهجوم موجها إلى ثروة المدينة وحدها، بل إلى قلب
الشرعية الدينية الأورارتية.

أصاب نهب المعبد هيبة المملكة، لأن قوة الدولة
كانت مرتبطة في الوعي الملكي بحماية خالدي لها.

وهكذا تحولت الحرب بين آشور وأورارتو إلى
صراع سياسي وديني في آن واحد.

تيشيبا واستمرار تيشوب

إلى جانب خالدي ظهر الإله تيشيبا، إله العاصفة
والرعد. ويكشف اسمه ووظيفته عن صلة واضحة
بالإله الحوري تيشوب.

هنا أجد واحدا من أقوى الأدلة الدينية على استمرار
التراث الحوري داخل أورارتو. لم يحتفظ
الأورارتيون بفكرة إله العاصفة فقط، بل احتفظوا
باسم قريب من اسمه الحوري ووظيفة دينية مشابهة.

لكن تيشيبا لم يحتل المرتبة الأولى في الدولة
الأورارتية، لأن خالدي أصبح الإله الأعلى. جاء
تيشيبا في المرتبة الثانية داخل الثالوث الرسمي.

لا يعني تغير المرتبة أن الإله الحوري اختفى. بل يعني أن الدولة الأورارتية أعادت ترتيب الآلهة وفقا لحاجاتها السياسية. احتفظت بالإله القديم، لكنها وضعت داخل نظام جديد يتصدره إله الملك والدولة.

وسميت مدينة تيشيبائيني باسم تيشيبا، وهي المدينة المعروفة بآثارها في كارمير بلور قرب يريفان. ويبين هذا الاسم أن عبادة إله العاصفة لم تكن هامشية، بل ارتبطت بمركز حضري وعسكري مهم.

شيويني إله الشمس

كان شيويني ثالث الآلهة الكبرى في الثلاث الأورارتي. ارتبط بالشمس والنور والعدالة والنظام.

يقابل دوره وظيفة إله الشمس في العقيدة الحورية، كما يظهر تأثير تقاليد بلاد الرافدين والأناضول في صورته ورموزه.

لا أرى في هذا التشابه دليلاً على نقل بسيط من
شعب إلى آخر، بل أراه جزءاً من بيئة دينية مشتركة
تداخلت فيها المعتقدات الحورية والأورارتية والحثية
والآشورية.

كانت الشمس رمزا مهما لجميع مجتمعات الشرق
القديم، لأنها مصدر الضوء والدفء والحياة. كما
كان شروقها اليومي يمثل انتصار النظام على
الظلام.

خالدي وتيشيبا وشيوييني

شكل خالدي وتيشيبا وشيوييني الثالوث الأعلى في
ديانة الدولة الأورارتية. وظهرت أسماؤهم في
النقوش الملكية وصيغ اللعن التي تهدد كل من يمحو
النقش أو ينسب أعمال الملك إلى نفسه.

يعبر هذا الثلاث عن ثلاثة أركان أساسية في العقيدة الأورارتية. خالدي يمثل سلطة الدولة والنصر، وتيشيبا يمثل العاصفة والمطر والقوة الطبيعية، وشيويني يمثل الشمس والنور والنظام.

أرى أن وجود تيشيبا داخل هذا الثلاث يثبت أن الموروث الحوري لم يكن مجرد أثر قديم على هامش المجتمع، بل دخل إلى قلب النظام الديني الرسمي لأورارتو.

بوابة مهر وتنظيم الآلهة

يقدم النقش المعروف باسم بوابة مهر قرب مدينة وان واحدا من أهم النصوص المتعلقة بالديانة الأورارتية. يعود تنظيمه إلى عهد إشبويني ومينوا، ويحتوي على قائمة طويلة من الآلهة والقرابين المقدمة إليها.

يكشف النقش أن الدولة لم تكتف بعبادة ثلاثة آلهة كبرى، بل اعترفت بعدد كبير من الآلهة المحلية وآلهة المدن والجبال والبحيرات والطرق والأماكن المقدسة.

كما تكشف كميات القرابين عن مرتبة كل إله داخل النظام الرسمي. كانت القرابين الكبرى تقدم إلى خالدي، ثم تتناقص وفقاً لمكانة بقية الآلهة.

توضح دراسة حديثة نشرتها جامعة كامبريدج أن نقش بوابة مهر يمثل أكمل تنظيم معروف للآلهة الأورارتية، وأن إحدى شعائره كانت تتطلب تقديم عدد كبير من الحيوانات في شهر إله الشمس. دراسة الطقوس الأورارتية في جامعة كامبريدج

أقرأ هذا النقش بوصفه مشروعاً دينياً وسياسياً. فقد جمع ملوك أورارتو آلهة المناطق المختلفة داخل قائمة واحدة، كما جمعوا شعوب تلك المناطق داخل دولة واحدة.

لم يبلغ الملك جميع الآلهة المحلية، بل وضعها تحت قيادة خالدي. وهكذا أصبح النظام الديني صورة عن النظام السياسي، حيث تتجمع المقاطعات والحصون والمدن تحت سلطة الملك.

القرايين والطقوس

شكلت القرايين الحيوانية جزءا أساسيا من الديانة الأورارتية. قدمت الثيران والأبقار والأغنام إلى الآلهة وفقا لنوع الطقس ومرتبة الإله.

لم يكن تقديم قربان عملا عشوائيا. فقد حددت النصوص عدد الحيوانات ونوعها والجهة التي تقدم إليها والوقت الذي تقام فيه الشعائر.

كانت الطقوس ترافق بناء المدن والقلاع وشق القنوات وزراعة الكروم والانتصارات العسكرية.

وهذا يدل على أن الدين كان حاضرا في الاقتصاد والزراعة والحرب والعمران.

عندما كان الملك يبني قناة للمياه، لم يقدمها بوصفها عملا هندسيا فقط، بل بوصفها عملا يحظى برعاية الآلهة. وعندما كان يؤسس مدينة، كان يجعل المعبد جزءا أساسيا من بنائها.

المعابد والفضاءات المقدسة

بنى الأورارتيون معابد حجرية داخل القلاع والمراكز الملكية. وكان المعبد الأورارتي غالبا بناء مرتفعا ذا مخطط منتظم، يرمز إلى حضور الإله داخل المدينة.

كما نحتوا واجهات ومداخل رمزية في الصخور. وقد لا تكون جميع هذه الواجهات أبوابا بالمعنى المعماري، بل أماكن لظهور الإله وإقامة الطقوس وتقديم القرابين.

قدس سكان المرتفعات الصخور والجبال والينابيع،
لأن الطبيعة في نظرهم لم تكن جامدة. كان الجبل
موضعا للقوة، والنبع مصدرا للحياة، والصخرة حدا
بين عالم الإنسان والعالم المقدس.

استمرار اسم بوابة مهر في الذاكرة المحلية أمر
مهم، لكنه لا يثبت أن خالدي تحول مباشرة إلى مهر
الأرمني. فاسم مهر يرتبط بمرحلة دينية لاحقة
تأثرت بالآلهة الإيرانية ميثرا. ومع ذلك فإن بقاء
المكان مرتبطا بالقداسة يكشف استمرار ذاكرة
الموقع حتى بعد تغير الآلهة والعقائد.

الرموز الدينية والفن

ظهرت في الفن الأورارتي صور الأشجار المقدسة
والثيران والأسود والطيور المجنحة والقرص
الشمسي والكائنات المركبة.

حمل الأسد معنى القوة والملكية، وارتبط الثور بالعاصفة والخصوبة، بينما عبرت الأجنحة عن العالم السماوي والقوة التي تتجاوز حدود الإنسان.

أما الشجرة المقدسة فمثلت الحياة والنمو والنظام وتجدد الطبيعة. وقد ظهرت أمامها شخصيات تؤدي طقوسا دينية أو تحمل أوعية مقدسة.

لم تكن هذه الرموز أورارتية خالصة، فقد ظهرت أشكال مشابهة في الفن الحوري والحثي والآشوري. لكن الأورارتيين لم ينسخوها بصورة جامدة، بل أعادوا تشكيلها وفق ذوقهم وبيئتهم ونظامهم الديني.

الدين والهوية السكانية

لا أستعمل تشابه الآلهة وحده لإثبات وحدة الشعب، لأن الآلهة تستطيع الانتقال بين المجتمعات عن طريق التجارة والحروب والزواج والعلاقات السياسية.

لكن عندما أجمع القرابة اللغوية مع الاستمرار
الجغرافي وتشابه أسماء الآلهة ووظائفها واستمرار
الرموز والطقوس، تظهر أمامي صورة تاريخية
مترابطة.

إن العلاقة بين تيشوب الحوري وتيشيبا الأورارتي
ليست تشابها عاما بين إلهين للعاصفة فقط. فهناك
قرابة في الاسم والوظيفة، كما توجد قرابة ثابتة بين
اللغتين اللتين حملتا الاسمين.

لهذا أضع الديانة إلى جانب اللغة والآثار والجغرافيا
بوصفها جزءا من الأدلة التي تشير إلى استمرار
العنصر الحوري داخل أورارتو.

من أورارتو إلى المرحلة الأرمنية

عندما سقطت الدولة الأورارتية لم تختف معابدها
وطقوسها وذاكرة أماكنها دفعة واحدة. استمر السكان

في القرى والوديان والمدن، وحملوا معهم أسماء
المواقع وقصص الجبال والينابيع والأبطال.

دخلت المنطقة بعد ذلك في مرحلة جديدة انتشرت
فيها اللغة الأرمنية وتأثرت ديانتها بالعقائد الإيرانية
والأناضولية واليونانية. لكن هذا التأثير الجديد لم
يهبط على أرض فارغة.

كانت الأرض تحمل تراثا حوريا وأورارتيا عميقا.
ولهذا دخلت العناصر الجديدة في مجتمع يمتلك
ذاكرة دينية سابقة.

لا أقول إن جميع الآلهة الأرمنية القديمة هي آلهة
حورية تغيرت أسماؤها، فالكثير من أسماء الآلهة
الأرمنية المعروفة يحمل تأثيرا إيرانيا واضحا.
لكنني أرى أن طريقة تقديس الجبال والينابيع
والصخور والأشجار وبعض تصورات البطولة
والخصوبة والحماية نشأت داخل بيئة أقدم من
ظهور تلك الأسماء.

إن الدين الجديد يستطيع أن يمنح المعبود اسما جديدا، لكنه لا يمحو دائما قداسة المكان. وقد يتحول المعبد إلى مزار جديد، وتتحول قصة الإله إلى قصة بطل، ويبقى الجبل أو النبع مركزا للذاكرة الشعبية.

الخلاصة

تكشف الديانة الحورية الأورارتية عن استمرارية عميقة في تاريخ سكان المرتفعات. كان تيشوب إله العاصفة الأكبر عند الحوريين، ثم ظهر تيشيبا داخل الثالوث الأورارتي محتفظا باسمه القريب ووظيفته الأساسية.

وفي الوقت نفسه قدمت أورارتو إلهها الأعلى خالدي وربطته بالملك والجيش والدولة. وهذا يبين أن أورارتو ورثت عناصر حورية، لكنها لم تكتف بتكرارها، بل أعادت تنظيمها وصنعت منها عقيدة ملكية جديدة.

كان الدين وسيلة لتوحيد المدن والقبائل، وكانت قائمة الآلهة صورة عن اتساع المملكة وتعدد سكانها. كما كانت المعابد والقرابين والواجهات الصخرية أدوات تربط الإنسان بالأرض والملك بالعالم الإلهي.

أصل من ذلك إلى أن الانتقال من العصر الحوري إلى العصر الأورارتي لم يكن قطيعة بين شعبين غريبين، بل تحولاً داخل فضاء بشري وحضاري متصل. تغير ترتيب الآلهة، وظهرت دولة جديدة، لكن كثيراً من الجذور الدينية القديمة استمر.

وبعد سقوط أورارتو انتقلت هذه الأرض وسكانها إلى المرحلة الأرمنية. تغيرت اللغة وأسماء الآلهة، ودخلت تأثيرات جديدة، لكن ذاكرة الجبال والمياه والصخور المقدسة بقيت جزءاً من هوية الإنسان الذي عاش في المرتفعات.

وفي الفصل التاسع أنتقل إلى الآثار والفنون الحورية والأورارتية، لأبحث في القلاع والمعابد والنقوش والأختام والتماثيل والأعمال البرونزية، ولأوضح كيف تحفظ المادة الأثرية ما لا تقوله النصوص المكتوبة.

الفصل التاسع

الآثار والفنون الحورية والأورارتية

أصول الأرمن من منظور حوري أورارتي
الأثر شاهد لا يتكلم وحده

بعد أن تناولت اللغة والديانة، أنتقل إلى الآثار والفنون، لأن ما صنعه الإنسان بيديه يستطيع أن يكشف جوانب لا تذكرها النصوص الملكية.

تدل القلاع والقصور والمعابد والأختام والأسلحة والأواني على مستوى التنظيم الاجتماعي والاقتصادي والفني. لكنها لا تقدم معناها كاملاً من دون معرفة تاريخ الموقع والطبقة التي عثر فيها على القطعة وعلاقتها بالنصوص المكتوبة.

لهذا لا أنسب كل أثر في شمال بلاد الرافدين
والمرتفعات إلى الحوريين، كما لا أعد كل قطعة
عثر عليها داخل حدود أورارتو أورارتية
بالضرورة. فقد عاشت في المنطقة جماعات متعددة،
وانتقلت الأساليب الفنية بين الممالك عن طريق
التجارة والحرب والزواج ونقل الحرفيين.

أبحث عن الترابط بين الموقع والنقش والاسم واللغة
والمرحلة التاريخية. وعندما تجتمع هذه الأدلة
أستطيع أن أقرب من هوية أصحاب الأثر.

صعوبة تحديد الفن الحوري

لم يؤسس الحوريون إمبراطورية واحدة استمرت
قرونا تحت سلطة مركزية ثابتة. انتشروا في مدن
وممالك متعددة من زاغروس وشمال بلاد الرافدين
إلى شمال سورية والأناضول.

لهذا يصعب الحديث عن فن حوري موحد له شكل واحد في جميع المناطق. فقد عمل الحرفي الحوري داخل بيئات سومرية وأكادية وبابلية وسورية وحثية، وأخذ منها وأثر فيها.

قد تحمل القطعة أسلوباً فنياً من بلاد الرافدين، بينما يحمل صاحبها اسماً حورياً. وقد يكون النص مكتوباً بالأكادية داخل مدينة يسكنها الحوريون. لذلك لا أستخرج هوية شعب كامل من شكل إناء أو زخرفة واحدة.

تكمن قوة الأثر الحوري في السياق الكامل. فإذا عثرت على قصر تحكمه أسرة حورية، وعلى أختام تحمل أسماء حكام حوريين، وعلى نصوص وأسماء آلهة حورية، أصبح من الممكن ربط الموقع بتاريخ الحوريين بصورة أكثر ثباتاً.

أوركيش المدينة الحورية

يعد تل موزان في شمال شرقي سورية من أهم المواقع التي تكشف الحياة الحورية في الألف الثالث قبل الميلاد. وقد جرى التعرف إليه بوصفه مدينة أوركيش القديمة، وهي مركز سياسي وديني مهم للهوريين.

كشفت التنقيبات عن مبنى ملكي ضخم وعن أعداد كبيرة من طبعات الأختام. وحملت بعض هذه الطبعات أسماء أفراد من الأسرة الحاكمة، وفي مقدمتهم الملك توبكيش والملكة أوكنيتوم.

من خلال هذه الأختام أستطيع أن أرى القصر لا بوصفه جداراً صامتة، بل مؤسسة حية تدير المخازن والبضائع والأبواب والممتلكات. كان الختم وسيلة لإثبات سلطة صاحبه وحماية الأشياء التي يشرف عليها.

أعلن مشروع تنقيب أوركيش العثور على أكثر من ألف طبعة ناتجة عن أكثر من مئة ختم، وحمل عدد منها كتابات ساعدت في التعرف إلى أفراد الأسرة

الملكية والإدارة. مكتشفات أوركيش في مشروع تل
موزان

كانت طبعة الختم صغيرة الحجم، لكنها تحمل مشهدا
كاملا. تظهر فيها الأسرة الملكية والخدم والحيوانات
والطقوس. وبذلك جمعت بين الوظيفة الإدارية
والتعبير الفني والسياسي.

لم يكن الهدف من الصورة هو الزينة وحدها. كانت
تعلن مكانة الملك والملكة، وتقدم صورة عن
استقرار السلالة واستمرارها. ولهذا أعد الأختام من
أهم الشواهد على الحياة السياسية والفنية الحورية.

القصر الملكي في أوركيش

يكشف القصر في أوركيش عن وجود سلطة منظمة
وقادرة على إدارة العمل وتخزين البضائع ومراقبة
الحركة داخل المبنى.

شيدت الجدران من اللبن فوق أسس حجرية، وهو أسلوب مناسب للبيئة ويحتاج إلى صيانة مستمرة. كما قسمت المساحات الداخلية وفقا للوظائف الإدارية والملكية والخدمية.

لا تكمن أهمية القصر في حجمه فقط، بل في علاقته بالأختام واللقى التي وجدت داخله. فقد ساعد هذا الترابط على تحديد هوية حكامه الحورية.

يعني ذلك أن الحوريين لم يكونوا مجرد جماعات جبلية تعيش على أطراف المدن الكبرى، بل أسسوا مراكز حضرية وقصورا وأنظمة إدارية منذ الألف الثالث قبل الميلاد.

المنشأة الطقسية تحت الأرض

كشفت أوركيش أيضا عن منشأة عميقة تحت الأرض ارتبطت على الأرجح بطقوس دينية متصلة بالعالم السفلي واستدعاء الأسلاف أو القوى الإلهية.

يمنحني هذا الأثر صورة مادية عن العقيدة الحورية التي تناولتها في الفصل السابق. لم تكن فكرة العالم السفلي قصة تروى فقط، بل ارتبطت بمكان معماري يؤدي فيه الكهنة أو أفراد النخبة شعائر خاصة.

إن حفر منشأة بهذا العمق وبنائها والمحافظة عليها يحتاج إلى عمل منظم. وهذا يدل على المكانة التي احتلها الدين داخل المجتمع وعلى قدرة السلطة على تخصيص الموارد للمشروعات الطقسية.

نوزي والحياة اليومية

تمثل مدينة نوزي قرب كركوك مصدرا أساسيا لدراسة المجتمع الحوري في الألف الثاني قبل الميلاد. فقد عثر فيها على آلاف الألواح المسمارية التي تكشف العقود والزواج والتبني والملكية والديون والإدارة.

تعبّر آثار نوزي عن مجتمع حضري متعدد التأثيرات. كانت الكتابة في كثير من النصوص أكاديمية، لكن أسماء عدد كبير من السكان كانت حورية.

وتكشف هذه الحالة أن اللغة المكتوبة لا تحدد وحدها هوية جميع السكان. فقد تستخدم الإدارة لغة دولية أو تقليدا كتابيا قديما، بينما يتحدث السكان في حياتهم اليومية لغة أخرى.

اشتهرت نوزي كذلك بنوع من الفخار المزخرف يعرف بأسلوب نوزي. استعمل الحرفيون أرضية داكنة ورسموا فوقها أشكالا هندسية ونباتية بألوان فاتحة.

لا أقول إن كل إناء يحمل هذا الأسلوب صنعه شخص حوري، لأن الفخار انتقل بين المدن وانتشر خارج نوزي. لكن ظهوره داخل البيئة التي عاشت

فيها جماعات حورية يجعله جزءا من الصورة الفنية لذلك العصر.

الأختام الحورية

احتلت الأختام الأسطوانية مكانة مهمة في الحياة الحورية. كان الختم يدحرج فوق الطين فيترك مشهدا متصلا، وقد استعمل لإغلاق الأبواب والأوعية والصناديق وتوثيق المعاملات.

ظهرت على الأختام مشاهد العبادة والولائم والأشجار المقدسة والحيوانات والكائنات المركبة والآلهة الواقفة فوق الجبال أو الحيوانات.

تكشف هذه الصور عن تداخل الفن بالدين والإدارة. فالختم أداة قانونية وعمل فني ورمز شخصي في الوقت نفسه.

كما تكشف الأختام عن التواصل بين الحوريين
وجيرانهم. تظهر فيها عناصر معروفة في الفن
الأكادي والسوري والأناضولي، لكنها أعيدت
صياغتها داخل البيئة الحورية.

يزيلكاي والتأثير الحوري

تعد منحوتات يزيلكاي الصخرية قرب العاصمة
الحثية حاتوشا من أشهر الشواهد على التأثير الديني
الحوري في الفن الحثي.

تظهر مواكب الآلهة في ترتيب يعكس بدرجة كبيرة
التقاليد الحورية. ويمكن التعرف إلى تيشوب
وخيبات وشارروما وعدد من الآلهة المرتبطة بهما.

لكنني لا أسمى يزيلكاي موقعا حوريا خالصا، لأنه
كان جزءا من الدولة الحثية وشيد في سياق ملكي
حثي. أهميته في هذا الكتاب أنه يبرهن على وصول
العقيدة والفن الحوريين إلى مركز المملكة الحثية.

تبين هذه المنحوتات أن التأثير الحوري لم يكن محدودا بالقرى والمدن التي عاش فيها الحوريون. لقد دخل القصر الحثي وأثر في تصوير الآلهة والطقوس الرسمية.

من المدن الحورية إلى قلاع أورارتو

عندما أنتقل إلى العصر الأورارتي ألاحظ تغيرا واضحا في حجم المشروعات المعمارية وطبيعتها. ظهرت دولة مركزية بنت القلاع فوق المرتفعات الصخرية وربطتها بشبكة من الطرق والمخازن والقنوات.

لا يعني هذا أن العمارة الأورارتية نسخة مباشرة من عمارة المدن الحورية. فقد فصلت بين المرحلتين قرون طويلة، وتغيرت الظروف السياسية والتقنيات والحاجات العسكرية.

لكن المنطقة لم تكن خالية بين العصرين. استمرت المجتمعات المحلية، وانتقلت الخبرات المتعلقة بالبناء بالحجر واللبن واستغلال الجبال وإدارة المياه وتقديس المواقع المرتفعة.

جعل الأورارتيون الجبل جزءا من العمارة. لم يكتفوا بالبناء فوق الصخر، بل قطعوه وسووه ونحتوا فيه السلالم والغرف والقبور والواجهات الدينية.

توشبا عاصمة الصخر

قامت توشبا على صخرة وان المظلة على البحيرة. جمع موقعها بين الحماية العسكرية والهيبة الملكية والسيطرة على الطرق والمناطق المحيطة.

نحت الأورارتيون في الصخرة غرفا ومقابر ملكية وسلالم ومنصات، وأقاموا فوقها الأبنية

والتحصينات. وكانت الجدران الحجرية تحمل طبقات عليا من اللبن.

يقدم هذا الأسلوب صورة عن قدرة المهندسين الأورارتيين على التعامل مع طبيعة الأرض. لم تكن الصخرة عقبة أمامهم، بل أصبحت قلب العاصمة ورمز قوتها.

كما حملت صخرة وان نقوشا ملكية سجلت حملات الملوك وأعمالهم. وهكذا اجتمع في المكان القصر والمقبرة والنقش والتحصين، وأصبحت العاصمة سجلا محفورا في الجبل.

إيريوني

أسس الملك أرغيشتي الأول قلعة إيريوني في القرن الثامن قبل الميلاد على تل يشرف على سهل أرات. وسجل تأسيسها في نقش أورارتي معروف.

احتوت القلعة على قصور ومعابد وقاعات ومخازن
وساحات. كما زينت بعض جدرانها برسوم ملونة
تظهر آلهة وحيوانات وأشجارا مقدسة ومشاهد
احتفالية.

تكشف إيريوني أن العمارة الأورارتية لم تكن
عسكرية فقط. كانت القلعة مركزا إداريا ودينيا
واقتصاديا وفنيا.

تؤكد الرسوم الجدارية أن قصور أورارتو لم تكن
أبنية حجرية قائمة كما تبدو أطلالها اليوم. كانت
جدرانها مغطاة بالألوان والزخارف، وكانت
المساحات الداخلية مصممة لإظهار هيبة الملك
والدولة.

وقد كشف البحث الأثري عن نماذج من الرسوم التي
تمثل المحاربين والمواكب والعناصر الدينية، وهو
ما يوسع معرفتي بالفن الأورارتي خارج النقوش

الحجرية والقطع البرونزية. دراسة الرسوم الجدارية في إيريوني

تيشيائيني

كانت تيشيائيني في كارمير بلور قرب يريفان من أبرز المراكز الأورارتية المتأخرة. حملت اسم إله العاصفة تيشيا، وهو الاسم الذي يرتبط بتيشوب الحوري.

كشفت التنقيبات عن مخازن كبيرة للحبوب والنبذ والزيت، وعن أسلحة ودروع وخوذ وأوان وأختام وأدوات مختلفة.

توضح هذه المكتشفات أن القلعة كانت مركزاً لتجميع منتجات المناطق المحيطة وإدارتها. لم تكن الدولة الأورارتية تعتمد على الجيش وحده، بل على نظام اقتصادي يستطيع تخزين الغذاء وتوزيعه وإمداد القلاع والسكان.

كما سمح الدمار الذي أصاب الموقع ببقاء عدد كبير من القطع في أماكنها. ولهذا تقدم تيشيبائيني صورة واسعة عن الحياة داخل قلعة أورارتية.

أيانيس ومعبد خالدي

تمثل قلعة أيانيس على الساحل الشرقي لبحيرة وان مرحلة متقدمة من العمارة الأورارتية. شيدها الملك روسا الثاني، واحتوت على معبد مكرس للإله خالدي.

كشفت الزخارف والنقوش والأسلحة المقدمة إلى المعبد عن الصلة بين الدين والملكية والحرب. كانت الدروع والرماح والأدوات المعدنية تقدم إلى خالدي بوصفها نذوراً ورموزاً للنصر.

تظهر في أيانيس دقة البناء الحجري وقدرة الحرفيين
على تزيين الجدران والأرضيات واستخدام المعادن
داخل الفضاء الديني.

تمنحني القلعة دليلا على أن الفن الأورارتي لم يكن
زينة منفصلة عن المجتمع. كان جزءا من العقيدة
والسلطة والجيش.

العمارة وإدارة المياه

من أعظم إنجازات أورارتو شبكات الري والقنوات.
فقد احتاجت المملكة إلى نقل المياه من الينابيع
والجبال إلى الحقول والمدن.

أنشأ الملك مينوا قناة طويلة لخدمة توشبا والمناطق
الزراعية المحيطة بها. وعرفت القناة في الأزمنة
اللاحقة باسم قناة شاميرام.

يكشف استمرار استخدام أجزاء من المنشآت المائية
عن معرفة هندسية دقيقة بمستوى الأرض واتجاه
الماء وصلابة الصخور.

أرى في القنوات وجهها آخر للفن، لأن الفن القديم لم
يكن مقتصرًا على التماثيل والزخارف. كان يظهر
أيضا في القدرة على تشكيل الأرض وتحويل الماء
إلى عنصر يخدم الزراعة والاستيطان.

ساعدت هذه المشروعات على تثبيت السكان حول
المدن والقلاع، وزيادة الإنتاج الزراعي وتوسيع
زراعة الكروم والبساتين.

المعدن الأورارتي

بلغ الأورارتيون مستوى متقدما في صناعة البرونز
والحديد. وصنعوا الدروع والخوذ والجعب
والأحزمة والأجراس ولوازم الخيول والأواني
والحلي وأجزاء الأثاث.

حملت بعض القطع نقوشا ملكية توضح اسم الملك والإله الذي قدمت إليه. وبهذا تحولت القطعة من أداة عسكرية أو منزلية إلى وثيقة تاريخية.

اشتهر الفن الأورارتي خصوصا بالأحزمة البرونزية الواسعة. زينت الأحزمة بمشاهد الصيد والفرسان والعربات والأسود والثيران والكائنات المجنحة والأشجار المقدسة.

كانت الزخرفة تنفذ بالتطريق والحفر، وتوزع المشاهد في صفوف أو مساحات منتظمة. ويظهر فيها تكرار العناصر بطريقة تمنح القطعة إيقاعا بصريا واضحا.

يعرض متحف المتروبوليتان مجموعة من الفنون الأورارتية، ويشير إلى صناعة مئات الأحزمة إلى جانب الدروع والخوذ والجعب وأدوات الخيل والأواني، مع زخارف تصور الآلهة والصيد

والمعارك والطقوس. فن أورارتو في متحف
المترربوليتان

الدروع والخوذ

كانت بعض الدروع الأورارتية مخصصة للعرض
أو للتقديم إلى المعابد أكثر من استخدامها في القتال.
فقد صنعت من صفائح لا تناسب دائما مواجهة
الضربات القوية، وزينت بصفوف من الأسود
والثيران والرموز المقدسة.

كانت الخوذ مخروطية الشكل، وقد تحمل زخارف
ونقوشا وصورا لآلهة أو ملوك ومحاربين. أما
الجعب البرونزية فحملت مشاهد الفرسان والجنود
والعربات.

تكشف هذه القطع عن العلاقة بين الجمال والقوة. لم
يكن السلاح أداة حرب فقط، بل علامة على مكانة
صاحبه وعلى حماية الإله له.

ويحتفظ المتحف البريطاني بدرع أورارتي من القرن السابع قبل الميلاد مصنوع من سبيكة نحاسية ويحمل نقشا باللغة الأورارتية. الدرع الأورارتي في المتحف البريطاني

القدور والأثاث

صنع الحرفيون الأورارتيون قدورا برونزية كبيرة وزينوها بملحقات على هيئة رؤوس الثيران والطيور والكائنات المجنحة.

ربما استعملت هذه القدور في الولائم والطقوس أو داخل القصور والمعابد. وقد أصبحت من أشهر منتجات الفن الأورارتي.

كما صنعت أجزاء برونزية لتزيين العروش والكراسي والأثاث الملكي. ظهرت عليها كائنات

مجنحة ووجوه بشرية وحيوانات تحمي الملك
رمزيا.

تكشف هذه القطع عن وجود ورش متخصصة تعمل
لحساب القصر والمعبد. وكان إنتاجها يحتاج إلى
معرفة بصهر المعادن وصبها وطرقها وتثبيت
أجزائها.

الفن بين التأثير والابتكار

تظهر في الفن الأورارتي تأثيرات آشورية وحثية
وشمال سورية وإيرانية. يمكنني رؤية ذلك في
صور الأسود والثيران والأجنحة والأشجار المقدسة
والملوك الواقفين أمام الآلهة.

لكن وجود التأثير لا يعني غياب الشخصية
الأورارتية. فقد أعاد الحرفيون ترتيب العناصر
داخل أسلوب يقوم على التكرار والتناظر والخطوط
الواضحة.

كما ارتبط الفن الأورارتي ببيئته الجبلية وبحاجة الدولة إلى القلاع والأسلحة والمخازن والقنوات. لذلك كانت له شخصية عملية ومنظمة إلى جانب وظيفته الجمالية والدينية.

ولا أستطيع أن أحدد أصل الحرفي من شكل القطعة وحده. فقد نقل الملوك الحرفيين بين المناطق، كما عمل داخل المملكة أشخاص من خلفيات متعددة.

نهب الآثار وفقدان السياق

واجهت الآثار الأورارتية مشكلة كبيرة بسبب النهب والاتجار غير المشروع. خرجت أحزمة وخوذ وقطع برونزية كثيرة من مواقعها من دون تسجيل مكان العثور عليها.

عندما تفقد القطعة سياقها أفقد معها جزءا من تاريخها. قد أعرف شكلها ومادتها، لكنني لا أعرف هل وجدت في قبر أو معبد أو مخزن أو منزل.

كما قد تظهر في السوق قطع مزورة أو مجمعة من أجزاء مختلفة. لذلك لا أعتمد على المظهر وحده، بل أعطي الأولوية للقطع المكتشفة في تنقيبات موثقة.

حماية الآثار ليست مسألة تخص المتاحف فقط، بل حماية لذاكرة الشعوب. فالقطعة المنهوبة تتحول إلى سلعة، أما القطعة الموثقة فتبقى صفحة من التاريخ.

ما تثبته الآثار

تثبت آثار أوركيش ونوزي وجود مجتمعات حورية حضرية امتلكت القصور والإدارة والأختام والفنون والطقوس. كما تكشف المواقع المتأثرة بالحوارين

عن اتساع حضورهم الثقافي خارج مراكزهم
الأصلية.

وتثبت القلاع الأورارتية وجود دولة قوية استطاعت
تنظيم الأرض والمياه والزراعة والجيش والحرف.
كما تكشف لغتها وديانها عن صلتها بالعالم الحوري
الأقدم.

لكن الآثار وحدها لا تستطيع أن تقول إن كل سكان
موقع معين كانوا من أصل واحد. فالمدينة القديمة
كانت تضم حكاما وجنودا وكهنة وحرفيين وتجارا
وأسرى ونازحين من مناطق مختلفة.

لهذا أبني رؤيتي على اجتماع الأدلة. أضع الآثار
إلى جانب اللغة والديانة والجغرافيا والنصوص
والاستمرار السكاني، ولا أحول شكلا زخرفيا واحدا
إلى برهان على هوية كاملة.

من أورارتو إلى أرمينيا

بقيت قلاع أورارتو ومشروعاتها المائية وطرقها
ومناطقها الزراعية بعد سقوط الدولة. ولم يبدأ
السكان الذين ظهروا لاحقا باسم الأرمن حياتهم فوق
أرض خالية.

ورثوا مشهدا عمرانيا شكلته أورارتو خلال قرون.
كانت القلاع والحقول والقنوات والمستوطنات جزءا
من البيئة التي عاشوا فيها، حتى عندما تغيرت
السلطة واللغة وأسماء المدن.

لا أقول إن الفن الأرمني نسخة مباشرة من الفن
الأورارتي. فقد مرت المنطقة بمراحل ميدية
وأخمينية وهنستية وإيرانية ورومانية ومسيحية،
وكل مرحلة تركت أثرها.

لكنني أرى أن استمرار السكن واستعمال الأرض
والمياه والممرات الجبلية يمثل أساسا ماديا

للاستمرار السكاني. فالشعوب لا تعيش في الأسماء
وحدها، بل في القرى والحقول والقنوات والمدن.

الخلاصة

تكشف آثار الحوريين عن مجتمع حضري وديني
وإداري امتد من زاغروس وشمال بلاد الرافدين إلى
سورية والأناضول. وتظهر أوركيش بوضوح وجود
سلالة حورية وفن ملكي ونظام إداري منذ الألف
الثالث قبل الميلاد.

أما أورارتو فقد نقلت حضارة المرتفعات إلى مرحلة
الدولة المركزية. بنت القلاع والمدن والمعابد
والمخازن والقنوات، وطورت فنا معدنيا ومعماريا
مميزا.

لا أرى بين المرحلتين تطابقا فنيا كاملا، لأن القرون
والتغيرات السياسية صنعت اختلافات كبيرة. لكنني

أرى استمراراً بشرياً وحضارياً داخل الجغرافيا
نفسها، تعززه القرابة اللغوية والدينية.

وعندما سقطت أورارتو لم تختف القلاع ولا القنوات
ولا الأراضي الزراعية ولا جميع سكانها. دخلت
هذه العناصر في المرحلة التالية، وأسهمت في
تشكيل البيئة التي ظهرت فيها أرمينيا القديمة.

وفي الفصل العاشر أنتقل إلى سقوط أورارتو
والتحول السياسي، لأبحث في أسباب ضعف المملكة
ونهاية حكمها، وأوضح الفرق بين سقوط الدولة
واستمرار السكان الذين عاشوا داخلها.

الفصل العاشر

سقوط أورارتو والتحول السياسي

أصول الأرمن من منظور حوري أورارتي
سقوط الدولة لا يعني اختفاء الشعب

عندما أتناول سقوط أورارتو أميز منذ البداية بين الدولة والسكان. فالدولة مؤسسة سياسية تقوم على الملك والجيش والإدارة والضرائب والقلاع، أما الشعب فهو المجتمع الذي يعيش في المدن والقرى ويزرع الأرض ويربي الحيوانات ويحافظ على عاداته وذاكرته.

يمكن أن تسقط السلطة المركزية خلال سنوات قليلة، بينما يبقى السكان في أرضهم أجيالا طويلة. وقد يغيرون لغتهم أو ولاءهم السياسي أو أسماء مناطقهم، لكن ذلك لا يعني أنهم تعرضوا جميعا للإبادة أو أنهم غادروا البلاد.

لهذا لا أتعامل مع نهاية أورارتو بوصفها اختفاء مفاجئا للأورارتيين وظهورا مفاجئا لشعب آخر. أتعامل معها بوصفها تحولا سياسيا كبيرا انتهت فيه المملكة، بينما دخل سكانها في أنظمة سياسية وثقافية جديدة.

ذروة القوة وبداية التحديات

بلغت أورارتو ذروة قوتها في القرن الثامن قبل الميلاد. امتدت سلطتها من منطقة بحيرة وان إلى سهل أرارات ومناطق بحيرة أورمية وأعلى الفرات والزاب.

بنت الدولة القلاع والمدن والقنوات والمخازن، وسيطرت على طرق التجارة والممرات الجبلية. كما تحدث آشور على النفوذ في شمال سورية والمناطق الواقعة بين الأناضول وزاغروس.

لكن هذا الاتساع وضع المملكة أمام مشكلات كبيرة. فقد احتاجت القلاع البعيدة إلى الجنود والغذاء والأسلحة، واحتاجت الطرق إلى الحماية، كما احتاجت المقاطعات إلى إدارة تستطيع جمع المحاصيل ونقلها إلى المخازن الملكية.

كل توسع عسكري يحمل في داخله عبئا اقتصاديا. فإذا ضعفت السلطة المركزية أو انقطعت الطرق أو هوجمت المخازن، يصبح الحفاظ على المناطق البعيدة أكثر صعوبة.

لم تسقط أورارتو لأنها كانت دولة ضعيفة منذ البداية، بل لأنها أصبحت قوة واسعة محاطة بخصوم متغيرين، وكان عليها الدفاع عن حدود طويلة داخل منطقة جبلية معقدة.

الصراع مع آشور

كانت آشور أخطر منافس لأورارتو خلال القسم الأكبر من تاريخها. لم يكن الصراع بينهما حرباً دائمة، فقد مرت العلاقة بمراحل من المواجهة والهدوء والمراسلات الدبلوماسية.

تنافست الدولتان على شمال سورية وعلى مناطق بحيرة أورمية وعلى الطرق التي تصل بلاد الرافدين بالأناضول والمرتفعات.

في سنة سبعمئة وثلاث وأربعين قبل الميلاد ألحق الملك الآشوري تغلث فلاسر الثالث هزيمة كبيرة

بسردي الثاني. وأدت تلك الهزيمة إلى تراجع النفوذ الأورارتي في شمال سورية.

ثم تقدمت القوات الآشورية إلى مناطق قريبة من العاصمة توشبا، لكنها لم تنه المملكة. استمرت أورارتو بعد ذلك وأعدت تنظيم جيشها ودفاعاتها.

كانت الضربة الكبرى التالية في عهد الملك روسا الأول، حين قام سرجون الثاني بحملته الشهيرة سنة سبعمئة وأربع عشرة قبل الميلاد. تحرك الجيش الآشوري عبر المناطق المحيطة ببحيرة أورمية وضرب حلفاء أورارتو ثم وصل إلى موساسير ونهب معبد خالدي.

حملت هذه الحملة معنى عسكريا ودينيا. فقد خسر روسا الأول حلفاء ومناطق مهمة، كما تعرض معبد الإله الأعلى في المملكة للنهب.

لكنني لا أعد سنة سبعمئة وأربع عشرة تاريخ سقوط
أورارتو. فقد نجت الدولة من الضربة، واستعادت
جزءا من قوتها في العهد اللاحقة.

التعافي بعد روسا الأول

تولى أرغيشتي الثاني الحكم بعد روسا الأول، وعمل
على تثبيت حدود المملكة وإعادة تنظيمها. ثم جاء
روسا الثاني الذي شهد عهده نشاطا كبيرا في بناء
القلاع والمدن الجديدة.

أسس روسا الثاني مراكز مهمة مثل تيشيبائيني
وبسطام وأيانيس وروساهينيلي. واحتوت هذه المدن
على مخازن واسعة ومعابد وتحصينات.

لو كانت أورارتو قد انهارت نهائيا بعد حملة
سرجون الثاني لما استطاعت بناء هذه المنشآت
خلال القرن السابع قبل الميلاد.

تؤكد آثار عهد روسا الثاني أن المملكة عاشت مرحلة من إعادة البناء والتوسع الداخلي. لكنها كانت تعمل في عالم مختلف عن عالم القرن الثامن.

لم تعد آشور وحدها الخطر الأكبر. ظهرت في الشمال والشرق جماعات فرسان سريعة الحركة، كما بدأت القوى الإيرانية في مناطق ميديا تتجمع وتزداد نفوذاً.

الكيميرون

دخل الكيمييريون إلى مناطق الأناضول والشرق الأدنى قادمين من سهوب الشمال. اعتمدوا على الخيالة، وكانت حركتهم أسرع من حركة الجيوش التقليدية المرتبطة بالمدن والقلاع.

واجه روسا الأول الكيمييريين وتعرضت قواته للهزيمة. لكن أثرهم في أورارتو يجب ألا يبالغ فيه.

لم يحتل الكيميريون المملكة كلها، ولم يقيموا إدارة
بديلة تدير قلاعها ومدنها.

كان خطرهم قائماً على الغارات والحركة السريعة
وضرب المناطق المفتوحة وقطع الطرق. وقد
أجبرت هذه الهجمات أورارتو على إنفاق موارد
إضافية للدفاع عن حدودها الشمالية.

كما هاجم الكيميريون مناطق أخرى في الأناضول
وأسهموا في إضعاف فريجيا. وهذا يدل على أن
تحركاتهم كانت جزءاً من تحول واسع أصاب
الممالك القديمة، ولم تكن موجهة إلى أورارتو
وحدها.

تشير دراسة لجامعة كامبريدج إلى أن أورارتو بقيت
قوة مهمة في عهد روسا الثاني رغم آثار الهجمات
الكيميرية السابقة، وهو ما يمنعني من تفسير سقوط
المملكة بحادثة واحدة. دراسة الكيميريين والسكوثيين
في جامعة كامبريدج

السكوثيون

ظهر السكوثيون في مناطق القوقاز وشمال غربي إيران والأناضول خلال القرن السابع قبل الميلاد. امتازوا بالقتال على ظهور الخيل وباستخدام القوس المركب والقدرة على التحرك لمسافات طويلة.

عثر في بعض المواقع الأورارتية على رؤوس سهام وأدوات تحمل صلات بأساليب السهوب. وقد دفعت هذه المكتشفات إلى ربط تدمير بعض القلاع بالسكوثيين.

لكن وجود رأس سهم سكوثي داخل طبقة دمار لا يكفي وحده لتحديد هوية الجيش الذي هاجم الموقع. فقد استعملت الأسلحة وانتقلت بين الجيوش، كما خدم المحاربون أحيانا مع قوى مختلفة.

ربما شارك السكوثيون في الهجمات على أورارتو،
وربما عملوا في بعض الفترات مع الميديين أو
ضدهم. كانت تحالفات ذلك العصر متغيرة، ولا
أستطيع أن أقدمهم بوصفهم جيشا موحدا نفذ خطة
واحدة لإسقاط المملكة.

الميديون

ازدادت قوة الميديين في مناطق غربي إيران خلال
القرن السابع قبل الميلاد. دخلوا في صراعات مع
آشور، ثم شاركوا مع البابليين في الهجوم الذي أدى
إلى سقوط نينوى سنة ستمئة واثنى عشرة قبل
الميلاد.

بعد سقوط آشور أصبحت ميديا من القوى الرئيسية
في الشرق الأدنى. وكانت أراضي أورارتو تقع إلى
الشمال الغربي من مناطق النفوذ الميدي.

لهذا نسب عدد من المؤرخين سقوط أورارتو إلى توسع الميديين. وربما هاجم الميديون بعض المناطق الأورارتية ووصلوا إلى مراكز مهمة.

لكنني لا أملك نصا معاصرا واضحا يصف حملة ميديية استولت على توشبا وأنهت المملكة في سنة محددة. كما أن الأدلة الأثرية لا تسمح دائما بتحديد هل كان المهاجمون ميديين أم سكوثيين أم جماعات متحالفة.

تقدم موسوعة إيرانيكا تصورا يجعل التوسع الميدي عاملا أساسيا في تدمير بعض المراكز الأورارتية مثل بسطام، لكن هذه النتيجة تبقى جزءا من النقاش حول نهاية المملكة وليست وصفا محفوظا في نقش ملكي مباشر. ميديا ونهاية أورارتو في موسوعة إيرانيكا

لذلك أقول إن الميديين كانوا من القوى التي استفادت من ضعف أورارتو وربما أسهمت في إسقاطها،

لكنني لا أحول الاحتمال إلى حقيقة مطلقة لا تقبل
المناقشة.

سقوط آشور وتغير ميزان القوى

قد يبدو أن سقوط آشور كان يجب أن يفيد أورارتو،
لأن المملكة تخلصت من منافسها القديم. لكن انهيار
آشور أزال أيضا النظام السياسي الذي اعتادت
أورارتو التعامل معه.

كانت العلاقة بين الدولتين تقوم على الحرب والردع
والدبلوماسية. عرف كل طرف حدود قوة الآخر،
ونشأت بينهما طرق اتصال وتحالفات ومناطق
فاصلة.

عندما سقطت آشور ظهر فراغ سياسي واسع.
تحرك البابليون والميديون والسكوثيون والقوى
المحلية لملئه، وأصبحت الحدود القديمة بلا قيمة.

وجدت أورارتو نفسها أمام خصوم لا يعملون بالطريقة الآشورية نفسها. كان بعضها أقل اعتمادا على المدن وأكثر قدرة على الحركة، وكان بعضها يسعى إلى توسيع نفوذه داخل المناطق التي فقدت الحماية الآشورية.

وهكذا لم يكن سقوط آشور خلاصا لأورارتو، بل كان جزءا من انهيار نظام كامل في الشرق الأدنى.

ضعف المراكز الملكية

اعتمدت أورارتو على شبكة من القلاع الكبرى. كانت المنتجات الزراعية تجمع في مخازنها، وكانت الجيوش تنطلق منها، كما كانت الإدارة والعبادة الملكية ترتبط بها.

منح هذا النظام الدولة قوة كبيرة عندما كانت الطرق آمنة والسلطة قادرة على التحكم في المقاطعات. لكنه

جعلها ضعيفة إذا تعرض عدد من المراكز الرئيسية للهجوم في وقت متقارب.

عندما تحترق القلعة لا تخسر الدولة جدرانها فقط. تخسر مخازن الحبوب والنبذ والزيت والأسلحة والسجلات والموظفين والجنود.

وإذا دمرت عدة قلاع يصبح من الصعب على الملك جمع الضرائب وإطعام الجيش وفرض سلطته على المناطق البعيدة.

تكشف التنقيبات عن طبقات دمار عنيفة في عدد كبير من المراكز الأورارتية التي كانت مزدهرة خلال القرن السابع قبل الميلاد. وتشير دراسة صادرة عن جامعة كامبريدج إلى أن كثيرا من هذه المواقع تعرض لدمار كارثي، وربما حدث تدمير عدد منها خلال فترة متقاربة. دراسة تدمير المراكز الأورارتية

لكن تقارب الدمار لا يعني بالضرورة أن جيشا واحدا دمر جميع المواقع في حملة واحدة. فقد تكون المملكة مرت بسلسلة من الهجمات والتمردات والانهيئات خلال عدة عقود.

الأسباب الداخلية المحتملة

لا أستطيع أن أفسر سقوط أورارتو بالغزوات الخارجية وحدها. فالدولة القوية تستطيع أحيانا صد الغزاة، أما الدولة التي تعاني مشكلات داخلية فتكون أكثر عرضة للانهيءار.

ربما أدى الصراع على العرش إلى إضعاف السلطة. وربما أصبحت المقاطعات البعيدة أقل ولاء للملك. كما أن تكلفة بناء القلاع الجديدة والمحافظة على الجيش والمخازن والقنوات كانت كبيرة.

وقد تؤدي سنوات الجفاف أو ضعف المحاصيل إلى تقليل الفائض الزراعي الذي تحتاجه الدولة. لكن

الأدلة المتاحة لا تسمح لي بتحديد أزمة مناخية
واحدة بوصفها السبب المباشر للسقوط.

لذلك أضع العوامل الداخلية في دائرة الاحتمال، ولا
أقدمها كوقائع ثابتة من دون نصوص أو أدلة أثرية
واضحة.

غموض الملوك الأخيرين

بعد عهد روسا الثاني تصبح معرفتي بتسلسل الملوك
الأورارتيين أقل وضوحاً. تظهر أسماء مثل
سردوري الثالث وروسا بن إريمينا وعدد من الحكام
المتأخرين، لكن ترتيبهم وتواريخ حكمهم موضع
نقاش.

يرجع هذا الغموض إلى قلة النقوش الملكية المتأخرة
وإلى توقف المصادر الآشورية التي كانت تقدم
معلومات عن أورارتو.

كانت آشور تسجل أسماء ملوكها وحملاتها وعلاقاتها بالدول المجاورة. وعندما سقطت آشور فقدت دراسة أورارتو واحدا من أهم مصادرنا الخارجية.

كما أن النقوش الأورارتية المتأخرة أقصر وأقل عددا من نقوش مرحلة القوة. لذلك لا أستطيع أن أحدد سنة نهائية واحدة لسقوط المملكة بثقة كاملة.

أضع نهاية أورارتو السياسية بين أواخر القرن السابع وبدايات القرن السادس قبل الميلاد. وأعد هذا التأريخ أكثر أمانا من اختيار سنة واحدة وتقديمها كأنها حقيقة نهائية.

الأدلة الأثرية والجهة المهاجمة

يوضح متحف المتروبوليتان أن المواقع الأورارتية المعروفة من التنقيبات في الأناضول وإيران والقوقاز تعرضت للدمار خلال النصف الثاني من

القرن السابع قبل الميلاد، لكنه يؤكد أن التاريخ
الدقيق وهوية المهاجمين ما زالا موضع بحث. نهاية
أورارتو في متحف المتروبوليتان

قد يكون المهاجمون ميديين في موقع وسكوثيين في
موقع آخر. وقد تكون بعض المدن سقطت بسبب
تمرد داخلي أو صراع محلي.

كانت أورارتو مملكة واسعة، ولذلك لا يشترط أن
تكون نهايتها قد حدثت بالطريقة نفسها في جميع
المناطق. ربما انهارت السلطة في الشرق قبل
الغرب، أو بقيت بعض القلاع تحت حكم محلي بعد
فقدان الملك سيطرته عليها.

هذا التعدد يفسر لماذا يجد المؤرخون صعوبة في
تقديم قصة واحدة بسيطة عن السقوط.

تدمير القلاع وبقاء القرى

تعطيني القلاع المحترقة صورة قوية عن العنف، لكنها تمثل مراكز الدولة وليست جميع أماكن سكن السكان.

كان معظم الناس يعيشون في القرى ويعملون في الزراعة والرعي والحرف. وربما هرب بعضهم من القلاع عند الهجوم ثم عاد إلى القرى أو انتقل إلى مناطق مجاورة.

لم يكن من مصلحة القوى الجديدة قتل جميع المزارعين وإفراغ البلاد، لأنها احتاجت إلى السكان لإنتاج الغذاء ودفع الضرائب وخدمة الطرق.

لذلك لا أستنتج من تدمير تيشيبائييني أو بسطام أو غيرهما أن جميع سكان المنطقة اختفوا. الذي انهار أولاً هو الجهاز السياسي الذي كان يدير هذه المراكز.

ربما قتل عدد كبير من الناس في الحروب، وربما حدثت موجات نزوح وأسر، لكن لا يوجد دليل على إبادة كاملة شملت سكان المملكة كلهم.

استمرار الأرض المنتجة

بقيت قنوات المياه والحقول والكروم والممرات الجبلية بعد سقوط الملكية. وقد استمرت أهمية بحيرة وان وسهل أراوات ومناطق بحيرة أورمية في العصور التالية.

لا يستطيع القادم الجديد أن يستعمل هذه المنشآت من دون معرفة محلية. كان الفلاحون والرعاة والحرفيون الذين عاشوا في المنطقة يحملون خبرة بالأرض والمياه والمواسم.

أرى في استمرار استغلال البيئة دليلاً على بقاء قسم مهم من السكان. فالمعرفة الزراعية لا تحفظها الجدران، بل يحفظها الناس وينقلونها إلى أبنائهم.

قد تتغير السلطة التي تجمع المحاصيل، لكن طريقة الزراعة ومواعيد الري وأماكن المراعي تستمر داخل المجتمع المحلي.

تراجع اللغة الأورارتية

مع انهيار القصر والمعابد والإدارة فقدت اللغة الأورارتية المؤسسات التي كانت تكتبها وتحافظ على مكانتها الرسمية.

كانت النقوش الملكية تحتاج إلى ملك وكتبة وورش ومعابد. وعندما اختفت هذه المؤسسات توقف إنتاج النصوص الأورارتية.

لكن توقف الكتابة لا يثبت أن الناس توقفوا عن الكلام بالأورارتية في اللحظة نفسها. ربما بقيت اللغة مستعملة في بعض القرى والمناطق خلال أجيال لاحقة.

ثم تراجعـت تدريجيا أمام لغات أخرى، وفي مقدمتها الأرمنية التي أصبحت اللغة الغالبة في قسم كبير من المرتفعات.

يمكن أن يحدث التحول اللغوي من دون هجرة جماعية. تتبنى الأسر لغة السلطة الجديدة أو لغة التجارة والتواصل، ثم تصبح اللغة القديمة محدودة داخل البيوت قبل أن تختفي.

من الهوية الأورارتية إلى الهويات الجديدة

كانت الهوية الأورارتية مرتبطة بالمملكة وباسم بيايني وبالمـلك وبالإله خالدي. وعندما اختفت الدولة ضعفت هذه الهوية السياسية.

لكن سكان البلاد لم يصبحوا بلا هوية. أعادوا تنظيم أنفسهم داخل قبائل وأقاليم وسلطات محلية، ثم دخلوا في النظام الميدي وبعده الأخميني.

ربما استمر بعض النبلاء والموظفين والكهنة في خدمة الحكام الجدد. كانت القوى المنتصرة تحتاج إلى أشخاص يعرفون طرق البلاد ومخازنها وأراضيها.

وهكذا انتقلت عناصر من المجتمع الأورارتي إلى المرحلة التالية، حتى لو اختفت أسماء مؤسساته القديمة.

التحول لا الاستبدال

أرفض الصورة التي تجعل التاريخ سلسلة من الشعوب المنفصلة، يختفي شعب منها بالكامل ليحل مكانه شعب جديد لا علاقة له بالأرض.

كانت المرتفعات منطقة اتصال وهجرات وحروب، لكنها كانت أيضا موطن مجتمعات مستقرة. دخلت

إليها جماعات جديدة واختلطت بالسكان، ولم يكن
التغير قائما دائما على استبدال الجميع.

من منظوري تمثل نهاية أورارتو انتقالا من الدولة
الحرورية الأورارتية الأخيرة إلى مرحلة تكوين
سياسي ولغوي جديد.

لم يبق السكان على حالهم من دون تغير، كما أنهم لم
يختفوا. اندمجوا مع عناصر جديدة، وتبنوا لغة
جديدة، وأعادوا بناء هويتهم داخل واقع سياسي
مختلف.

هذا هو المعنى الذي أضعه لمفهوم الاستمرارية. لا
أقصد نقاء عرقيا ثابتا، بل بقاء قاعدة سكانية قديمة
شاركت في صناعة الشعب الذي ظهر لاحقا في
المصادر باسم الأرمن.

ما بعد أورارتو

بعد انهيار المملكة دخلت مناطقها في مرحلة لا تقدم عنها المصادر معلومات كثيرة. ربما خضعت أقسام منها للنفوذ الميدي، بينما احتفظت مناطق أخرى بحكام محليين.

ثم ظهرت الدولة الأخمينية في القرن السادس قبل الميلاد، وضمت المرتفعات إلى نظامها الإمبراطوري.

في هذه المرحلة ظهر اسم أرمينيا في نصوص ملكية واضحة. ولم يظهر الاسم فوق أرض فارغة، بل فوق أراضي أورارتو وبين سكان ورثوا مدنها وحقولها وطرقها.

إن قصر المدة بين نهاية أورارتو وظهور أرمينيا في المصادر يجعل فرضية اختفاء جميع سكان المملكة واستبدالهم بالكامل أمرا غير مقنع.

كانت المدة كافية لتغير السلطة والاسم السياسي، لكنها لا تقدم دليلاً على إزالة مجتمع كامل وبناء مجتمع آخر من الصفر.

الخلاصة

لم تسقط أورارتو في معركة واحدة ولم تنته في تاريخ يمكن إثباته بصورة قاطعة. كان سقوطها نتيجة سلسلة من الضغوط العسكرية والسياسية والاقتصادية.

أضع الصراع الطويل مع آشور والغارات الكيميرية والسكوثية وصعود الميديين وضعف شبكة القلاع وتغير ميزان القوى بين الأسباب التي ساهمت في النهاية.

تعرضت مراكز كثيرة للدمار، وتوقف إنتاج النقوش الملكية، واختفت سلطة الملك الأورارتي. لكن القرى والحقول والقنوات والسكان لم تختف جميعها.

سقطت المملكة، لا الأرض. انتهت الإدارة، لا التاريخ البشري. تراجعت اللغة الأورارتية، لكن أبناء المتحدثين بها استمروا داخل المجتمع الجديد.

ومن هنا أصل إلى أن سقوط أورارتو كان نهاية مرحلة سياسية حورية أورارتية وبداية مرحلة تشكلت فيها أرمينيا القديمة.

وفي الفصل الحادي عشر أتناول ظهور اسم أرمينيا، وأبحث في أقدم النصوص التي سجلته وفي معنى الانتقال من اسم أورارتو وبياني إلى اسم أرمينيا، مع التمييز بين اسم البلاد وأصل سكانها ولغتهم.

الفصل الحادي عشر

ظهور اسم أرمينيا
أصول الأرمن من منظور حوري أورارتي
الاسم الجديد والأرض القديمة

بعد أن تناولت سقوط أورارتو، أصل الآن إلى مرحلة ظهر فيها اسم أرمينيا بصورة واضحة في النصوص الملكية القديمة.

لا أتعامل مع ظهور الاسم بوصفه تاريخ ميلاد الشعب أو بداية استيطان الأرض. فالاسم السياسي قد يظهر في وثيقة بعد أن يكون السكان قد عاشوا في المنطقة زمنا طويلا.

كما أن تغير اسم البلاد لا يعني بالضرورة استبدال سكانها. قد تسقط دولة ويحمل الإقليم اسما جديدا في لغة القوة الصاعدة، بينما يستمر معظم سكانه داخل القرى والمدن والمناطق الزراعية نفسها.

من هنا أنطلق لفهم الانتقال من أورارتو إلى أرمينيا. فقد اختفى اسم المملكة الأورارتية من النقوش الملكية، ثم ظهر اسم أرمينيا داخل النظام الأخميني. وبين المرحلتين لم تكن هناك قرون طويلة تسمح بالقول إن سكان أورارتو اختفوا جميعا وجاء شعب جديد ليبنى المجتمع من البداية.

أسماء أورارتو

لم تحمل المملكة اسما واحدا في جميع اللغات. أطلق الملوك الآشوريون عليها اسم أورارتو، بينما استخدم البابليون صيغة قريبة هي أوراشتو.

أما ملوك الدولة أنفسهم فاستعملوا اسم بيايني أو بياينيلي في نقوشهم. ولهذا لا يجوز لي أن أتصور أن اسم أورارتو كان الاسم الوحيد الذي استعمله السكان داخل المملكة.

يعبر اختلاف الأسماء عن اختلاف اللغات والتقاليد السياسية. فالشعب قد يسمي بلاده باسم، بينما يسميه جيرانه باسم آخر.

استمر اسم أورارتو في التقاليد المسمارية الآشورية والبابلية، وانتقل في النصوص العبرية بصيغة أرارات. ولم يكن اسم أرارات في النصوص القديمة اسما للجبل المعروف اليوم وحده، بل كان اسما لبلاد أو مملكة في المرتفعات.

وهكذا تكشف الأسماء أورارتو وأوراشتو وأرارات
وبياني عن أرض واحدة عرفت من زوايا لغوية
وسياسية مختلفة.

نقش بيستون

يعد نقش بيستون الذي أمر الملك الأخميني داريوس
الأول بكتابته من أهم الوثائق لفهم ظهور اسم
أرمينيا.

نقش النص على جرف صخري في منطقة بيستون
قرب كرمنشاه، وكتب بالفارسية القديمة والعلامية
والبابلية. ويروي داريوس فيه كيفية وصوله إلى
الحكم والحروب التي خاضها لإخماد الثورات داخل
الإمبراطورية.

يعود النقش إلى بداية عهد داريوس، وبدأ إنشاؤه
نحو سنة خمسمئة وإحدى وعشرين قبل الميلاد.

وتؤكد منظمة اليونسكو أنه نص ملكي متعدد اللغات
يسجل استعادة داريوس السيطرة على الإمبراطورية
بعد سلسلة من الثورات. نقش بيستون في منظمة
اليونسكو

تكمّن أهمية النقش بالنسبة إلى هذا الكتاب في أن
النسخة الفارسية القديمة استعملت اسم أرمينا، بينما
استعملت النسخة البابلية المقابلة الاسم القديم
أوراشتو.

أما النسخة العيلامية فاستعملت صيغة قريبة من
هارمينويا. وبذلك قدم النص الواحد ثلاثة أسماء
ضمن ثلاث لغات للإقليم نفسه.

أرمينا وأوراشتو

إن استعمال أرمينا في النسخة الفارسية وأوراشتو
في النسخة البابلية ليس تفصيلاً لغوياً صغيراً. فهو
يكشف أن كتبة داريوس كانوا يتعاملون مع أرض

معروفة سابقا في التقليد المسماري باسم أورارتو أو أوراشتو، لكنها أصبحت معروفة في الفارسية باسم أرمينا.

لا يعني ذلك أن أورارتو الملكية كانت ما تزال قائمة في عهد داريوس. فقد كانت الدولة الأورارتية قد انهارت، ودخلت المنطقة في نظام سياسي جديد.

لكن اختيار الاسم البابلي القديم يدل على استمرار الذاكرة الجغرافية. عرف الكاتب البابلي البلاد بالاسم الذي استخدمه الكتبة في بلاد الرافدين خلال قرون، بينما استعمل الكاتب الفارسي الاسم المتداول داخل الإدارة الأخمينية الجديدة.

أرى في هذا التوازي دليلا قويا على الاستمرار الجغرافي بين أرض أورارتو وأرض أرمينيا. لم تكن أرمينا في نقش بيستون بلدا بعيدا عن مركز أورارتو، بل كانت الإقليم الذي حافظ التقليد البابلي على تسميته أوراشتو.

لكنني لا أقول إن الاسمين متطابقان في كل عصر
من حيث الحدود السياسية الدقيقة. فقد تتسع حدود
البلاد أو تضيق، وقد تضم مناطق لم تكن خاضعة
دائماً لملوك أورارتو.

الذي يثبت النقش هو أن الإدارة الأخمينية ربطت
الاسم الجديد أرمينا بالإقليم الذي عرفه الكتبة
البابليون باسم أوراشتو.

أقدم ظهور ثابت للاسم

أعد أرمينا في نقش بيستون أقدم صيغة ثابتة
ومؤرخة بوضوح للاسم أرمينيا في وثيقة ملكية
معاصرة للأحداث.

توجد محاولات لربط اسم أرمينيا بأسماء أقدم مثل
أرماني وأرمانوم، الواردة في نصوص من الألف

الثالث قبل الميلاد. لكن مواقع تلك البلاد ومعاني
أسمائها ما زالت موضع خلاف.

لا أستطيع أن أقول إن أرمانيوم المذكورة في
النصوص الأكادية هي أرمينيا من دون وجود سلسلة
لغوية وجغرافية واضحة تربط بينهما.

كما تظهر محاولات لربط الاسم بمنطقة أرمي أو
بشخصيات وأسماء قبلية قديمة. وقد تكون بعض هذه
الاقتراحات جديرة بالدراسة، لكنها لا تصل إلى
درجة الدليل القاطع.

لهذا أفصل بين أقدم ظهور ثابت لاسم أرمينا وبين
الأسماء الأقدم المتشابهة صوتيا. فالتشابه بين كلمتين
لا يثبت وحده أنهما اسمان للبلاد نفسها.

معنى اسم أرمينيا

لا يوجد اتفاق نهائي على أصل اسم أرمينا. قد يكون الاسم وصل إلى الفرس عن طريق لغة أو شعب مجاور، وقد يكون مرتبطا باسم منطقة أو جماعة محلية أقدم.

ظهرت تفسيرات تربطه باسم الملك الأورارتي أرامو، وتفسيرات أخرى تربطه بمنطقة أرمي، لكن التحول من هذه الأسماء إلى أرمينا يحتاج إلى أدلة أكثر من مجرد التشابه.

لذلك لا أختار اشتقاقا نهائيا وأقدمه على أنه حقيقة. أكتفي بما أستطيع إثباته، وهو أن الاسم كان معروفا لدى الإدارة الفارسية في عهد داريوس الأول وأنه استعمل للدلالة على إقليم أورارتو السابق.

إن الاعتراف بعدم معرفة أصل الاسم بدقة لا يضعف البحث، بل يحميه من تحويل الاحتمالات إلى حقائق.

الثورة في أرمينيا

لم يذكر نقش بيستون أرمينيا في قائمة البلاد فقط، بل تحدث عن ثورة وقعت فيها ضد داريوس.

كان الوضع داخل الإمبراطورية الأخمينية مضطربا بعد وصول داريوس إلى الحكم. اندلعت الثورات في بابل وميديا وفارس ومناطق أخرى، وكانت أرمينيا من البلاد التي لم تعترف بسلطته مباشرة.

أرسل داريوس قائدا يدعى دادارشي إلى أرمينيا. ويصفه النص صراحة بأنه أرمني. أمره الملك بإخماد الجيش الثائر الذي لم يعترف بالحكم الأخميني.

سجل النقش ثلاث معارك خاضها دادارشي في أماكن سميت زوزا وتيغرا وأوياما. ثم أرسل داريوس قائدا فارسيا يدعى فاهوميسا، وخاض بدوره معارك ضد القوات الثائرة.

يمكن قراءة نص الحملة وترجمة المقطع الذي
يصف إرسال دادارشي الأرمني إلى أرمينيا ضمن
نصوص نقش بيستون. حملة دادارشي في نقش
بيستون

تدل هذه الأحداث على أن أرمينيا لم تكن مجرد اسم
جغرافي وضعه الفرس على مساحة فارغة. كانت
بلادها فيها قوات وسكان وقيادات قادرة على مقاومة
الجيش الأخميني في سلسلة من المعارك.

كما أن اختيار قائد أرمني لإخماد الثورة يدل على
وجود أفراد من النخبة الأرمنية داخل الخدمة
الأخمينية. وهذا يعني أن المجتمع كان متنوع
المواقف، فبعض القوى قاومت داريوس، بينما خدم
أفراد آخرون في جيشه.

هوية الثائرين

لا يذكر النقش اسم قائد واحد لجميع الثوار في
أرمينيا، ولا يقدم وصفا لغتهم أو أصل كل مجموعة
شاركت في القتال.

لهذا لا أقول إن جميع التأثيرين كانوا يتحدثون
الأرمنية، كما لا أقول إنهم كانوا أورارتيين يتحدثون
الأورارتية. كانت المنطقة تمر بمرحلة تحول لغوي
وسياسي، وربما ضمت جماعات متعددة.

لكن استعمال اسم أرمينيا ووصف دادارشي بأنه
أرمني يثبت أن الاسم لم يكن مجرد اختراع جغرافي
بلا علاقة بالسكان. فقد استخدم النص اسم البلاد
واسم الانتماء إليها.

أرى أن هذه المرحلة تمثل زمنا كانت فيه الهوية
الأرمنية الجديدة تتقدم داخل الإقليم، بينما كانت بقايا
السكان والتقاليد الأورارتية ما تزال حاضرة.

أراخا ابن خالديتا

يذكر نقش بيستون رجلا يدعى أراخا قاد ثورة في بابل وادعى أنه ابن الملك البابلي نابونيد.

يصفه النص بأنه أرمني، ويذكر أن اسم أبيه خالديتا. وقد ربط بعض الدارسين اسم خالديتا بالإله الأورارتي خالدي.

إذا صح هذا الارتباط فإن اسم الرجل يجمع بين وصف أرمني واسم عائلي يحمل أثرا أورارزيا. وهذا مثال مهم على التداخل بين المرحلة القديمة والمرحلة الجديدة.

لكنني أتعامل مع اشتقاق خالديتا بحذر. فالتشابه قوي، لكنه يحتاج إلى دراسة لغوية دقيقة قبل أن أجعله دليلا نهائيا.

ما يهمني بصورة ثابتة هو أن النص الأخميني وصف أراخا بأنه أرمني. وهذا يبين وجود الأرمن

داخل الإمبراطورية في بداية عهد داريوس، كما
يبين مشاركة بعضهم في الصراعات السياسية
الكبرى خارج أرمينيا نفسها.

دلالة الثورة على المجتمع

احتاج داريوس إلى قائدين وعدة معارك لإعادة
إخضاع أرمينيا. وهذا يدل على وجود تنظيم محلي
وقوة عسكرية وطرق اتصال بين مناطق البلاد.

لا أعرف شكل الحكم الذي سبق الثورة بصورة
كاملة. ربما استمرت أسر محلية في إدارة أجزاء من
البلاد بعد سقوط أورارتو، ثم خضعت للميديين
وبعدهم للفرس.

وقد يكون النظام الأخميني قد اعتمد على بعض
البنى الإدارية التي ورثها الإقليم من أورارتو، ولا
سيما تنظيم الأراضي والطرق ومراكز التخزين.

لم يكن من العملي أن يهدم الفرس كل ما وجدوه ثم يبدأوا من الصفر. كانت سياستهم في مناطق كثيرة تقوم على استخدام النخب المحلية والإدارات القائمة ما دامت تعترف بسلطة ملك الملوك وتدفع الضرائب وتقدم الجنود.

لهذا أرى أن الإدارة الأخمينية كانت طبقة سياسية جديدة فوق مجتمع احتفظ بجزء من بنيته السابقة.

ظهور الأرمن في المصادر اليونانية

بعد المصادر الأخمينية ظهر اسم الأرمن وأرمينيا في الكتابات اليونانية.

تنسب إلى الجغرافي هيكاتايوس الملطي إشارات مبكرة إلى الأرمن في أواخر القرن السادس أو بدايات القرن الخامس قبل الميلاد. لم تصل مؤلفاته كاملة، بل حفظت منها مقتطفات نقلها مؤلفون متأخرون.

ثم ذكر هيرودوت الأرمن في القرن الخامس قبل الميلاد ضمن الشعوب الخاضعة للإمبراطورية الأخمينية. ووضعهم في قوائم الضرائب والقوات التي خدمت في جيش خشايارشا.

قال هيرودوت إن الأرمن كانوا مجهزين بطريقة تشبه الفريجيين، وقدم رواية تجعلهم من مستوطني فريجيا.

لا أتعامل مع هذه الرواية بوصفها حكما نهائيا على أصل الشعب الأرمني. فقد اعتمد المؤرخون اليونانيون أحيانا على تشابه الملابس والأسلحة والأساطير لتفسير صلة شعب بآخر.

كما أن التشابه الثقافي بين الأرمن والفريجيين لا يثبت أن جميع سكان أرمينيا هاجروا من فريجيا. قد يدل على اتصال أو اشتراك لغوي أو انتقال

جماعات محدودة أو مجرد تصور يوناني للعلاقة
بين الشعبين.

شهادة زينوفون

تقدم رحلة زينوفون وجيش العشرة آلاف في سنة
أربعمئة وواحدة قبل الميلاد وصفا مباشرا لأجزاء
من أرمينيا.

عبر الجيش مناطق جبلية شديدة البرودة، ومر بقرى
وحقول ومراكز مرتبطة بالإدارة الأخمينية. كما ذكر
الحاكم تيريباروس الذي كان يمثل السلطة الفارسية
في المنطقة.

تحدث زينوفون عن قرى كبيرة ووفرة في الطعام
والحبوب والحيوانات. وذكر بيوتا حفرت أقسام منها
تحت الأرض للحماية من برد الشتاء.

كما وصف شرابا مصنوعا من الشعير كان يشرب
من أوعية كبيرة بواسطة أنابيب. وتكشف روايته
عن مجتمع زراعي مستقر يمتلك مخازن وقرى،
ولا يعيش على الترحال وحده.

تحفظ الأناباسيس وصفا للقرى الأرمنية والقصر
التابع للحاكم وكثرة المؤن في أثناء رحلة الجيش.
وصف زينوفون لأرمينيا

بعد نحو قرن من نقش بيستون لم يعد اسم أرمينيا
مجرد اسم يظهر في قائمة فارسية. أصبحت البلاد
موصوفة في رواية شاهد مر بأراضيها والتقى
سكانها.

الاسم الخارجي والاسم الداخلي

أرمينيا هو الاسم الذي ظهر في الفارسية واليونانية
ثم انتقل إلى لغات كثيرة. أما الأرمن فقد سموا
أنفسهم هاي وسموا بلادهم هايستان.

لا توجد علاقة لغوية مثبتة بين اسم أرمينا واسم هاي. إنهما تقليدان مختلفان في تسمية الشعب والبلاد.

وجود اسم خارجي واسم داخلي ظاهرة معروفة في تاريخ الشعوب. فالألمان يسمون أنفسهم باسم يختلف عن الاسم المستعمل في العربية والفرنسية، كما تختلف أسماء بلدان وشعوب كثيرة بين لغة وأخرى.

لذلك لا أعد اختلاف أرمينيا عن هاياستان دليلا على وجود شعبين منفصلين. إنه يدل على أن الجيران استعملوا اسما، بينما استعمل السكان لأنفسهم اسما آخر.

لكن تاريخ ظهور اسم هاي في النصوص المكتوبة أكثر تعقيدا، لأن أقدم المؤلفات المحفوظة باللغة الأرمنية تعود إلى المرحلة التي أعقبت ابتكار الأبجدية الأرمنية في القرن الخامس الميلادي.

لا يعني تأخر الكتابة أن الاسم لم يكن مستعملاً قبل ذلك. يعني فقط أن الوثائق الأرمنية الأقدم لم تصل إلينا.

هايك والرواية القومية

تربط الرواية الأرمنية التقليدية اسم هاي بالبطل هايك، الذي يظهر في التاريخ المنسوب إلى موسى الخورني.

تمثل قصة هايك جزءاً مهماً من الذاكرة القومية الأرمنية. لكنها وصلت إلينا في نص كتب بعد الأحداث القديمة بقرون طويلة.

لذلك أفرق بين القيمة الرمزية للرواية وبين البرهان التاريخي. تعبر قصة هايك عن الطريقة التي فهم بها الأرمن أصلهم في العصور اللاحقة، لكنها لا

تستطيع وحدها أن تحدد متى ظهر اسم هاي أو من أين جاء لغويا.

وقد تكون الرواية حفظت عناصر أقدم أعيد تنظيمها داخل قصة نسب قومي، لكن تحديد هذه العناصر يحتاج إلى مقارنة دقيقة مع النصوص والآثار والأساطير القديمة.

أرمينيا بوصفها اسما سياسيا

في النظام الأخميني أصبحت أرمينيا إقليما تابعا لسلطة ملك الملوك. قدمت الضرائب والجنود والخيول، وحكمتها نخبة محلية تعمل داخل النظام الإمبراطوري.

لا أعرف بدقة متى بدأ استعمال اسم أرمينا قبل داريوس. وربما كان مستخدما قبل نقش بيستون بمدة، لأن النقش لا يشرح الاسم لجمهوره ولا يقدمه بوصفه اسما جديدا.

عندما يستعمل النص اسما بصورة طبيعية فهذا يعني غالبا أن الإدارة كانت تعرفه مسبقا. لكن غياب الوثائق يمنعني من تحديد تاريخ أقدم.

كان الاسم في البداية يدل على بلاد خاضعة للإمبراطورية، ثم أصبح مع الزمن مرتبطا بمملكة وهوية تاريخية واسعة.

من أورارتو إلى أرمينيا

يمثل نقش بيستون لحظة نادرة أستطيع فيها رؤية الاسم القديم والاسم الجديد داخل وثيقة واحدة.

تقول النسخة الفارسية أرمينا، بينما تحافظ النسخة البابلية على أوراشتو. بالنسبة إلي لا تعني هذه المقابلة أن كل شيء أورارتي أصبح أرمينيا بصورة آلية، لكنها تثبت أن الاسمين ارتبطا بالإقليم نفسه في ذهن كتبة الإمبراطورية.

اختفت الملكية الأورارتية، وتراجعت اللغة الأورارتية، وصعدت اللغة الأرمنية والاسم الأرمني. لكن الأرض والمدن والطرق والقنوات والسكان لم يبدأوا من جديد.

دخلت جماعات ناطقة بالأرمنية إلى المجتمع أو توسعت داخله، واختلطت بالسكان الحوريين الأورارتيين وجماعات المرتفعات الأخرى. ومع مرور الأجيال أصبحت اللغة الأرمنية لغة المجتمع الأوسع.

من منظوري لم يكن الشعب الأرمني القديم جماعة غريبة حلت محل الحوريين والأورارتيين بصورة كاملة. كان شعبا تشكل من قاعدة سكانية قديمة ورثت الأرض، ثم دخلت عليها عناصر لغوية وسياسية جديدة.

لهذا أقول إن الحوري والأورارتي موجودان داخل
التكوين التاريخي للأرمن، لا بمعنى أن اللغات
الثلاث لغة واحدة، بل بمعنى أن سكان المراحل
السابقة شاركوا في صناعة المجتمع اللاحق.

ما يثبت الاسم وما لا يثبت

يثبت اسم أرمينا أن أرمينيا كانت معروفة في بداية
العصر الأخميني، وأنها كانت إقليمًا فيه سكان
وجيش ونخبة محلية.

ويثبت اختلاف أسماء الإقليم في نسخ بيستون وجود
صلة جغرافية واضحة بين أورارتو القديمة وأرمينيا
الأخمينية.

لكن الاسم وحده لا يثبت نسبة جميع السكان، ولا
يحدد اللغة التي كان يتحدث بها كل فرد، ولا يقدم
تاريخًا كاملاً لتكوين الشعب الأرمني.

لهذا أضع الاسم إلى جانب اللغة والآثار والديانة
والجغرافيا. وعندما أجمع هذه الأدلة أرى مرحلة
انتقال طويلة، لا لحظة استبدال سريعة.

الخلاصة

ظهر اسم أرمينيا بصيغة أرمينا بصورة ثابتة في
نقش بيستون خلال عهد داريوس الأول. وفي النص
نفسه استخدمت النسخة البابلية اسم أوراشتو للإقليم
المقابل.

تكشف هذه المقابلة أن اسم أرمينيا حل سياسيا
وجغرافيا محل الاسم الذي استعملته التقاليد
المسمارية لأورارتو. لكنها لا تعني أن جميع سكان
البلاد غيروا هويتهم في يوم واحد.

تدل الثورة الأرمنية ضد داريوس على وجود قوى
محلية منظمة. ويدل دادارشي الأرمني على مشاركة
بعض النخب الأرمنية في الإدارة الأخمينية. ثم

جاءت المصادر اليونانية لتقدم معلومات إضافية عن الأرمن وبلادهم.

أرى أن اسم أرمينيا يمثل عنوان المرحلة الجديدة، بينما حمل المجتمع في داخله عناصر حورية وأورارتية ونايرية وجماعات ناطقة بالأرمنية.

لم تولد أرمينيا من فراغ بعد سقوط أورارتو. ظهرت فوق الأرض نفسها، وبين سكان ورثوا جزءا كبيرا من جغرافيتها ومراكزها وخبراتها الزراعية والحضارية.

وفي الفصل الثاني عشر أنتقل إلى تكوين اللغة والهوية الأرمنية، لأوضح الفرق بين أصل اللغة وأصل السكان، وكيف أصبحت اللغة الأرمنية الهندوأوروبية لغة مجتمع يحمل في داخله موروث المرتفعات الحوري الأورارتي.

الفصل الثاني عشر

تكوّن اللغة والهوية الأرمنية

أصول الأرمن من منظور حوري أورارتي
اللغة ليست الشعب كله

بعد أن تناولت ظهور اسم أرمينيا، أنتقل إلى السؤال
الأصعب، وهو كيف تكونت اللغة والهوية الأرمنية
داخل بلاد كانت قبل ذلك موطنًا للحوريين وشعوب
نايري ومملكة أورارتو.

أبدأ بالتمييز بين أصل اللغة وأصل السكان. فقد
تتبنى جماعة بشرية لغة جديدة من دون أن يتغير
جميع أفرادها أو يغادروا أرضهم.

توجد في التاريخ شعوب كثيرة غيرت لغتها بسبب
الحكم أو الدين أو التجارة أو اختلاط السكان.
احتفظت هذه الشعوب بأجزاء من عاداتها وذاكرتها
وأصولها المحلية رغم أنها لم تعد تتحدث لغة
أجدادها.

لذلك لا أبحث عن أصول الأرمن داخل اللغة
وحدها. أبحث عن تكوين بشري حدث في أرض

معينة، وشاركت فيه جماعات قديمة ولغات متعاقبة
وتحولات سياسية وثقافية.

من منظوري تكوّن الشعب الأرمني داخل
المرتفعات من سكان قدامى كان الحوريون
والأورارتيون من أهم جذورهم، ثم أصبحت اللغة
الأرمنية لغة هذا المجتمع خلال عملية طويلة.

موقع اللغة الأرمنية

تتنمي اللغة الأرمنية إلى العائلة الهندوأوروبية،
وتشكل فرعاً مستقلاً داخل هذه العائلة.

لا تنتمي الأرمنية إلى الفرع الإيراني، ولا إلى
اليونانية، ولا إلى اللغات الأناضولية القديمة، كما
أنها ليست لهجة من لهجات الفارسية.

ولا تنحدر الأرمنية لغويا من الحورية أو الأورارتية. تختلف بنية اللغة الأرمنية الأساسية عن بنية اللغتين الحورية والأورارتية.

تؤكد دراسة جامعة كامبريدج عن الأرمنية الكلاسيكية أن الأرمنية فرع مستقل من العائلة الهندوأوروبية، وأنها تشترك في بعض التطورات مع اليونانية واللغات الهندوأيرانية، من دون أن تكون واحدة منها. اللغة الأرمنية الكلاسيكية في جامعة كامبريدج

هذه الحقيقة اللغوية لا تنفي الاستمرار السكاني الحوري الأورارتي. فهي تحدد أصل اللغة، ولا تحدد وحدها أصل جميع الأشخاص الذين أصبحوا يتحدثونها.

اللغة الهندوأوروبية

العائلة الهندوأوروبية مجموعة واسعة من اللغات التي تعود إلى أصل لغوي قديم مشترك. تنتمي إليها اليونانية والإيرانية والهندية القديمة واللاتينية والجرمانية والسلافية والأرمنية وغيرها.

لا يعني هذا الانتماء أن جميع الشعوب التي تتحدث هذه اللغات تنتمي إلى أصل بشري واحد نقي. اللغة تستطيع أن تنتقل من جماعة محدودة إلى عدد أكبر من السكان.

قد تنتشر لغة مجموعة حاکمة بين سكان البلاد، أو تصبح لغة التجارة والزواج والإدارة، ثم تنتقل إلى الأطفال حتى تحل مكان اللغات المحلية.

لذلك أرفض تحويل التصنيف اللغوي إلى تصنيف عرقي. عندما أقول إن الأرمنية هندوأوروبية فإنني أتحدث عن قواعد اللغة وتاريخ مفرداتها وأصواتها، ولا أقول إن جميع الأرمن قدموا من مكان واحد وحلوا محل سكان المرتفعات.

علاقة الأرمنية باليونانية

تظهر بين الأرمنية واليونانية بعض الخصائص المشتركة في القواعد والمفردات القديمة. ولهذا اقترح بعض اللغويين وجود مرحلة مشتركة بينهما قبل انفصالهما.

لكن الأدلة لا تكفي لإثبات أن الأرمنية خرجت مباشرة من اليونانية، أو أن الأرمن كانوا يونانيين تحولوا إلى شعب آخر.

يمكن أن تكون أوجه الشبه نتيجة احتفاظ اللغتين بعناصر هندوأوروبية قديمة، أو نتيجة اتصال طويل، أو نتيجة مرحلة تقارب لم تصل إلى درجة تكوين فرع واحد.

لذلك أصف الأرمنية بأنها فرع مستقل، ولا أجعلها لهجة يونانية أو إيرانية.

الرواية الفريجية

ذكر هيرودوت أن الأرمن كانوا من مستوطني الفريجيين، ولاحظ تشابها في تجهيزاتهم العسكرية.

اعتمد بعض المؤرخين على هذه الرواية لتقديم الأرمن بوصفهم جماعة جاءت كاملة من البلقان أو فريجيا إلى المرتفعات.

لكن رواية واحدة لا تكفي لإثبات هجرة شعب بأكمله. لم يقدم هيرودوت تاريخا للهجرة ولا طريقها ولا أسماء قادتها، كما لم يشرح مصير سكان أورارتو السابقين.

وقد حاول بعض اللغويين إيجاد صلة خاصة بين الأرمنية والفريجية، لكن النتائج لم تثبت وجود علاقة تجعل إحداهما امتداداً مباشراً للآخرى.

تشير دراسة جامعة كامبريدج إلى أن المحاولات
المبنية على رواية هيرودوت لإثبات تطورات لغوية
مشتركة خاصة بين الأرمنية والفريجية لم تحقق
نتائج حاسمة. الأرمنية وعلاقتها بالفريجية واليونانية

قد تكون جماعات ذات صلة بفريجيا وصلت إلى
المنطقة واندمجت بسكانها، لكنني لا أملك دليلاً
يسمح لي بتحويل ذلك إلى قصة استبدال كامل
للسكان.

أين تكونت الأرمنية

لا توجد وثيقة تخبرني بالمكان الدقيق الذي ولدت
فيه اللغة الأرمنية الأولى. فاللغات تتكون خلال
أزمنة طويلة قبل أن تدخل مرحلة الكتابة.

ربما تطورت الأرمنية المبكرة داخل مناطق قريبة
من الأناضول والمرتفعات، ثم انتشرت تدريجياً.

وربما دخلت إليها جماعات ناطقة بلهجة
هندوأوروبية ثم اختلطت بالسكان المحليين.

المهم أن الأرمنية عندما ظهرت في المصادر
السياسية كانت مرتبطة بإقليم أرمينيا، وهو الإقليم
الذي ورث أرض أورارتو الأساسية.

لا أجد دليلا على أن جميع سكان أورارتو اختفوا
قبل انتشار الأرمنية. والأقرب إلى طبيعة التاريخ أن
اللغة الجديدة انتشرت بين السكان السابقين واختلط
المتحدثون بها معهم.

ربما بدأت العملية قبل سقوط أورارتو، حين ضمت
المملكة جماعات ولغات مختلفة. ثم تسارعت بعد
انهيار الإدارة التي كانت تحمي مكانة اللغة
الأورارتية.

لغة المملكة ولغات السكان

كانت الأورارتية لغة النقوش الملكية والإدارة العليا،
لكن هذا لا يثبت أنها كانت اللغة الوحيدة داخل
المملكة.

ضمت أورارتو مناطق واسعة من بحيرة وان إلى
بحيرة أورمية وسهل أرارات وأعالي الفرات. ومن
الطبيعي أن يوجد داخل هذه المساحة تنوع لغوي
وقبلي.

ربما تحدث قسم من السكان الأورارتية، بينما
استعملت جماعات أخرى لغات أو لهجات محلية لم
تصل إلينا نصوصها.

وقد تكون الأرمنية المبكرة موجودة داخل أجزاء من
المملكة قبل سقوطها، من دون أن تكون لغة النقوش
الملكية.

هذا الاحتمال مهم، لأنه يعني أن التحول من الأورارتية إلى الأرمنية ربما بدأ داخل المجتمع الأورارتي نفسه، وليس بالضرورة بعد انهياره فقط.

لكنني لا أقدم هذا الاحتمال كحقيقة ثابتة، لأنني لا أملك نصوصاً أرمنية تعود إلى العصر الأورارتي.

كيف يحدث التحول اللغوي

لا يحتاج تغير اللغة إلى قرار ملكي يفرض على الناس التوقف عن استعمال لغتهم القديمة. غالباً يبدأ التحول بصورة تدريجية.

قد يتحدث الآباء لغة محلية داخل البيت ولغة أخرى في السوق أو الجيش أو الإدارة. ثم يتعلم الأبناء اللغتين، وبعد أجيال تصبح اللغة الأوسع انتشاراً هي اللغة الأساسية.

تستمر بعض الكلمات القديمة داخل اللغة الجديدة،
ولا سيما أسماء الجبال والأنهار والنباتات والأدوات
والمحاصيل.

كما قد تستمر طريقة نطق بعض الأصوات أو
ترتيب بعض العبارات بسبب تأثير اللغة السابقة في
المتحدثين.

هذه العملية تعرف بالتأثير اللغوي المحلي. لكنها لا
تحول اللغة الجديدة إلى فرع من اللغة القديمة. تظل
الأرمنية هندوأوروبية، حتى لو حملت مفردات أو
تأثيرات من الحورية والأورارتية.

تراجع الأورارتية

توقفت النقوش الأورارتية بعد سقوط المملكة. وبذلك
فقدت اللغة المؤسسات التي كانت تكتبها وتحفظ
صورتها الرسمية.

من المحتمل أن الأورارتية استمرت مدة داخل
بعض المناطق، ثم تراجعت أمام الأرمنية وغيرها
من اللغات.

تشير موسوعة إيرانيكا إلى احتمال بقاء الأورارتية
في بعض المناطق الشمالية الغربية خلال العصر
الأخميني، بينما كانت الأرمنية قد حلت مكانها في
جنوب القوقاز. انتقال المنطقة من الأورارتية إلى
الأرمنية

تكشف هذه الصورة أن التحول لم يقع في الوقت
نفسه داخل جميع المناطق. ربما بقيت قرى تتحدث
الأورارتية بعد أن أصبحت الأرمنية لغة مناطق
أخرى.

ومع توسع استعمال الأرمنية دخل أبناء المتحدثين
بالأورارتية في المجتمع الأرمني. لم يختفوا، بل
تغيرت لغتهم وهويتهم السياسية بالتدريج.

الأثر الحوري الأورارتي في الأرمنية

بحث اللغويون عن كلمات أرمنية قديمة يمكن أن تكون مأخوذة من الحورية أو الأورارتية. وقد قدموا عددا من المقارنات المتعلقة بالطبيعة والزراعة والحيوانات والأماكن.

لكن ليس كل تشابه بين كلمة أرمنية وكلمة حورية أو أورارتية دليلا على الاقتراض. يجب إثبات توافق الأصوات والمعنى والتاريخ وإمكان الاتصال.

تزداد الصعوبة لأن النصوص الحورية والأورارتية لا تحفظ جميع كلمات الحياة اليومية. معظم النقوش الأورارتية ملكية، ولذلك لا أعرف أسماء كثير من النباتات والأدوات والعادات بلغتهم.

كما لا أملك نصوصا أرمنية تعود إلى بداية التحول اللغوي، مما يجعل الفترة الفاصلة بين آخر النصوص الأورارتية وأول الأدب الأرمني طويلة.

لهذا لا أبني رؤيتي على قائمة كلمات مختلف عليها.
أستند إلى الصورة الأوسع التي تجمع استمرار
السكان والجغرافيا والآثار والديانة وتحول اللغة.

أثر اللغات الإيرانية

دخلت إلى الأرمنية أعداد كبيرة من الكلمات
الإيرانية، ولا سيما خلال العصور الأخمينية
والفرثية والساسانية.

ارتبطت هذه الكلمات بالإدارة والملكية والجيش
والدين والحياة الاجتماعية. وكان النفوذ الإيراني
عميقا إلى درجة أن بعض الدارسين القدماء ظنوا أن
الأرمنية لغة إيرانية.

لكن المقارنة العلمية أثبتت أن البنية الأساسية
للأرمنية مستقلة، وأن الكلمات الإيرانية دخلت إليها
عن طريق الاقتراض.

توضح موسوعة إيرانيكا أن الأرمنية المكتوبة في القرن الخامس الميلادي ظهرت وهي تحمل عددا كبيرا من الكلمات الإيرانية. التأثير الإيراني في اللغة الأرمنية

يقدم هذا مثالا مهما على الفرق بين أصل اللغة والتأثير الثقافي. فقد تحمل اللغة آلاف الكلمات من لغة أخرى من دون أن تصبح فرعاً منها.

وبالطريقة نفسها يمكن للأرمنية أن تحمل طبقة حورية أورارتية محلية من دون أن تكون لغة حورية أو أورارتية.

العصر الأخميني

أصبحت أرمينيا جزءاً من الإمبراطورية الأخمينية، فدخل سكانها في نظام واسع يضم لغات وشعوباً متعددة.

استعملت الإدارة لغات مثل الفارسية القديمة والعلامية والبابلية والآرامية. وربما كانت الآرامية أهم وسيلة للاتصال الإداري اليومي في مناطق كثيرة.

لم تكن الأرمنية في ذلك العصر لغة النقوش الإمبراطورية، لكن غيابها عن الكتابة الرسمية لا يعني أنها لم تكن مستعملة في الكلام.

كان المجتمع الأرمني يعيش بين لغة محلية ولغات الإدارة والتجارة والدين. وقد أسهم هذا التعدد في إدخال مفردات جديدة وفي توسيع وعي السكان بأنفسهم داخل الإمبراطورية.

إن تسمية الإقليم أرمينا وتسمية شخص مثل دادارشى أرمينيا تدلان على وجود هوية إقليمية وبشرية، حتى لو لم تصلنا نصوص مكتوبة بلغتها.

الهوية الأرمنية الأولى

لا تتكون الهوية من اللغة وحدها. تحتاج أيضا إلى أرض مشتركة وذاكرة سياسية وعلاقات اجتماعية ومصالح تربط السكان بعضهم ببعض.

ساعد الحكم الأخميني على تثبيت أرمينيا بوصفها إقليما معروفا. كما ساعدت النخب المحلية التي تولت إدارة البلاد على بناء استمرارية سياسية بين العصر الأخميني والمراحل اللاحقة.

بدأ سكان مناطق مختلفة ينظرون إلى أنفسهم بوصفهم مرتبطين بأرض أرمينيا، حتى مع استمرار الاختلافات المحلية والقبلية.

ومع انتشار اللغة الأرمنية أصبحت وسيلة تجمع السكان الذين ورثوا خلفيات متعددة.

من منظوري لم تكن الهوية الأرمنية الأولى نقية أو مغلقة. كانت نتيجة اتحاد عناصر حورية وأورارتية ومحلية وهندوأوروبية وإيرانية داخل جغرافيا واحدة.

اسم هاي

أطلق الأرمن على أنفسهم اسم هاي، وأطلقوا على بلادهم اسم هايستان. لكن أقدم النصوص المحفوظة التي تسجل هذين الاسمين باللغة الأرمنية تعود إلى العصر المسيحي.

لا يعني ذلك أن الاسم نشأ في القرن الخامس الميلادي. فقد كان مستخدماً في الكلام قبل تدوينه، لكنني لا أستطيع تحديد الزمن الدقيق لظهوره.

ظهرت محاولات لربط اسم هاي باسم هايازا المعروف من النصوص الحثية. والتشابه بين

الاسمين مهم ويستحق الدراسة، لكنه لا يكفي وحده لإثبات التطابق.

فالفاصل الزمني كبير، كما أن تحديد لغة سكان هايازا وهويتهم ما زال موضع نقاش.

لذلك لا أقدم هايازا بوصفها أرمينيا من دون تحفظ، ولا أرفض الصلة بصورة نهائية. أتركها فرضية تحتاج إلى أدلة لغوية وجغرافية متسلسلة.

الاسم الخارجي والهوية الداخلية

استعمل الفرس واليونانيون أسماء أرمينا وأرمينيا والأرمن، بينما استعمل الشعب اسم هاي.

ربما كان اسم أرمينيا في البداية اسما خارجيا لإقليم أو جماعة، ثم أصبح الاسم المعروف دوليا. أما اسم هاي فكان الاسم الداخلي الذي حفظه المجتمع لنفسه.

اجتمع الاسمان حول شعب واحد، ولم يؤد اختلافهما إلى وجود هويتين منفصلتين.

ومع مرور الزمن أصبحت أرمينيا اسم الدولة والبلاد في اللغات الخارجية، بينما بقي هاياستان اسم البلاد في اللغة الأرمنية.

نشوء الأرمنية المكتوبة

بقيت الأرمنية لغة منطوقة قرونا قبل أن تظهر في النصوص المحفوظة. استعمل الأرمن خلال تلك الفترة اليونانية والسريانية والفارسية والآرامية في الكتابة والإدارة والدين.

في بداية القرن الخامس الميلادي وضع ميسروب ماشتوتس الأبجدية الأرمنية بدعم من الملك فرامشابهو والبطريك ساهاك.

يؤرخ هذا الحدث عادة بين سنتي أربعمئة وأربع
وأربعمئة وست للميلاد. وتؤكد موسوعة إيرانيكا أن
اختراع الأبجدية أطلق حركة واسعة لترجمة
النصوص اليونانية والسريانية وفتح الطريق أمام
الأدب والتأريخ الأرمني. ميسروب ماشتوتس
وابتكار الأبجدية

لم يصنع ماشتوتس اللغة الأرمنية، بل منح اللغة
المنطوقة نظاما كتابيا يتناسب مع أصواتها.

كانت الأرمنية موجودة قبل الأبجدية، والدليل أن
تصميم الحروف احتاج إلى معرفة دقيقة بأصوات
لغة يتحدثها المجتمع.

الأرمنية الكلاسيكية

تعرف لغة أقدم النصوص الأرمنية باسم الأرمنية الكلاسيكية أو گرابار. وهي أقدم مرحلة مكتوبة محفوظة من اللغة.

ظهرت في ترجمة الكتاب المقدس والنصوص الدينية والتاريخية والفلسفية. وسرعان ما أصبحت وسيلة لبناء ثقافة مكتوبة واسعة.

تكشف گرابار عن لغة ناضجة ذات قواعد ومفردات غنية. ولم تكن لغة ناشئة في القرن الخامس، بل نتيجة تطور طويل سبق الكتابة بقرون.

كما احتفظت اللهجات الأرمنية اللاحقة بعناصر قديمة لم تظهر جميعها في اللغة الأدبية. وهذا يدل على أن الواقع اللغوي كان أوسع من الشكل الرسمي المكتوب.

الأبجدية وتثبيت الهوية

منحت الأبجدية المجتمع الأرمني أداة لحفظ تاريخه
ودينه وذاكرته بلغته الخاصة.

قبلها كانت الروايات والأسماء والتقاليد تنتقل شفها
أو تكتب بلغات أخرى. وبعدها أصبح من الممكن
إنتاج كتب أرمنية وتعليم رجال الدين وتوحيد القراءة
بين المناطق.

ساعدت الكتابة على تقوية الشعور بالانتماء إلى
مجتمع واحد، ولا سيما بعد انقسام أرمينيا بين
الإمبراطوريتين الرومانية والساسانية.

أصبحت اللغة المكتوبة وطريقة العبادة والكنيسة
عناصر تحافظ على الهوية عندما ضعفت الدولة
السياسية.

لكنني أميز بين بداية الكتابة وبداية الشعب. لم يولد
الشعب الأرمني مع الأبجدية، بل وجد في الأبجدية
وسيلة لتسجيل هويته القديمة وإعادة صياغتها.

اللغة والذاكرة القديمة

عندما بدأ المؤرخون الأرمن الكتابة في القرن الخامس حاولوا تفسير ماضي شعبهم وأسماء بلادهم وأسرهم الحاكمة.

جمعوا بين الروايات الشفوية والكتاب المقدس والمصادر اليونانية والسريانية والإيرانية. وربطوا تاريخهم بقصص هايك وأرام وأرارات.

لا أتعامل مع جميع هذه الروايات بوصفها سجلات معاصرة للأحداث القديمة. لكنها تكشف كيف حفظ الأرمن ذاكرة أرضهم وكيف أعادوا فهمها بعد دخول المسيحية.

وقد تكون بعض القصص الجديدة قد حملت داخلها أصداً بعيدة من المعتقدات الحورية والأورارتية، ثم أعيدت صياغتها داخل لغة ودين جديدين.

لكن إثبات الصلة بين شخصية أرمنية وإله حوري
أو ملك أورارتي يحتاج إلى أكثر من تشابه الاسم أو
الوظيفة.

تكوين الشعب من طبقات متعددة

لا أستعمل كلمة التكوين بمعنى أن الشعب الأرمني
صنع في لحظة واحدة. التكوين عملية استمرت
قرونا.

كانت القاعدة الأولى سكان المرتفعات الذين عاشوا
فيها منذ العصور القديمة. دخل في هذه القاعدة
الحوريون وشعوب نايري وسكان أورارتو
وجماعات محلية أخرى.

ثم انتشرت لغة هندوأوروبية أصبحت الأرمنية،
ودخلت معها جماعات أو نخب أو روابط جديدة.

جاء بعد ذلك التأثير الإيراني في الحكم والدين
والمجتمع، ثم التأثير اليوناني والهلنستي، وأخيرا
المسيحية والأبجدية.

لم تلغ طبقة جديدة جميع الطبقات السابقة. كانت كل
مرحلة تضيف عنصرا وتغير بعض العناصر
وتحافظ على غيرها.

هذا هو الشعب التاريخي كما أفهمه. ليس دما نقيا
ثابتا، بل مجتمع يتشكل في أرضه ويستوعب
الوافدين ويعيد بناء هويته.

موقفي من الوحدة الحورية الأرمنية

عندما أقول إن الشعب الأرمني القديم والهوري
شعب واحد، لا أقصد أن الحورية والأرمنية لغة
واحدة. هذا يخالف الأدلة اللغوية.

أقصد أن السكان الحوريين لم يختفوا من المرتفعات،
وأن امتدادهم الأورارتي دخل في تكوين الشعب
الأرمني.

أصبح أبناء السكان الحوريين والأورارتيين يتحدثون
الأرمنية خلال أجيال طويلة. وبذلك تغيرت لغة
المجتمع، لكن جذوره السكانية والحضارية بقيت
داخله.

تمثل الحورية عندي طبقة قديمة، وتمثل الأورارتيّة
مرحلة الدولة المركزية، وتمثل الأرمنية اللغة التي
وحدت المجتمع الجديد وحملت تاريخه إلى العصور
اللاحقة.

لا ألغي العناصر الأخرى، لكنني أضع الحوريين
والأورارتيين في قلب التكوين، لأن أرضهم ولغتهم
السابقة وآثارهم ومدنهم سبقت ظهور أرمينيا
واستمرت داخل جغرافيتها.

الخلاصة

اللغة الأرمنية فرع مستقل من العائلة الهندوأوروبية، وليست امتداداً لغويا مباشرا للهورية أو الأورارتية.

لكن أصل اللغة لا يساوي أصل جميع المتحدثين بها. فقد انتشرت الأرمنية بين سكان المرتفعات خلال عملية تحول طويلة، ودخل المتحدثون بالهورية والأورارتية في المجتمع الأرمني الجديد.

حملت الأرمنية تأثيرات من لغات المنطقة، ثم دخلتها مفردات إيرانية كثيرة بسبب الحكم والعلاقات السياسية. ومع ذلك احتفظت ببنيتها الهندوأوروبية المستقلة.

ساعد اسم أرمينيا على تثبيت الإقليم سياسيا، وساعدت اللغة على جمع السكان، ثم منحت الأبجدية المجتمع وسيلة لحفظ ذاكرته.

أرى أن الهوية الأرمنية نتجت من التقاء الأرض
والسكان واللغة والتاريخ. لم تبدأ من هجرة واحدة،
ولم تتكون من عنصر منفرد، ولم تظهر فوق أرض
خالية.

إنها هوية نشأت فوق أساس حوري أورارتي عميق،
ثم تطورت حتى أصبحت شعباً ولغة وثقافة معروفة
في التاريخ.

وفي الفصل الثالث عشر أنتقل إلى أرمينيا في
العصور الأخمينية والهلنستية، لأبحث في الإدارة
والحكم المحلي والتأثير الإيراني واليوناني، وكيف
انتقلت أرمينيا من إقليم داخل إمبراطورية إلى مملكة
ذات سلطة وسلالة حاكمة.

الفصل الثالث عشر

أرمينيا في العصرين الأخميني والهلنستي
أصول الأرمن من منظور حوري أورارتي
مدخل إلى مرحلة جديدة

عندما انتهى الحكم الأورارتي لم تختف شعوب المرتفعات الأرمنية، ولم تفرغ البلاد من سكانها، ولم تبدأ حياة جديدة فوق أرض خالية. الذي سقط هو النظام الملكي المركزي الذي حكم من توشبا، أما السكان والقرى والمدن والحصون وطرق الزراعة وتقاليد العبادة فقد استمرت بأشكال متعددة.

أنطلق في هذا الفصل من أن أرمينيا الأخمينية والهلنستية كانت امتدادا بشريا وجغرافيا للعالم الحوري الأورارتي. تغيرت أسماء الدول والسلالات الحاكمة، ودخلت عناصر إيرانية ويونانية إلى الإدارة والثقافة، لكن القاعدة السكانية بقيت متصلة بمجتمعات المرتفعات القديمة.

لم تكن أرمينيا في هذه المرحلة كيانا منعزلا. فقد وقعت بين الإمبراطوريات الكبرى، وأصبحت معبرا للجيوش والتجارة والأفكار. ومع ذلك احتفظت بخصوصيتها الجغرافية وبنخبها المحلية، وتمكنت تدريجيا من الانتقال من إقليم تابع إلى مملكة مستقلة.

أرمينيا داخل الإمبراطورية الأخمينية

في القرن السادس قبل الميلاد أصبحت أرمينيا جزءا من الإمبراطورية الأخمينية الفارسية. وظهر اسمها بصيغة أرمينا في النقوش الملكية الأخمينية، وخاصة في نقش بيستون العائد إلى عهد الملك داريوس الأول.

كان ظهور اسم أرمينا في هذه النصوص دليلا على دخول الاسم السياسي الجديد إلى الوثائق الرسمية للإمبراطورية. لكنه لا يعني أن شعبا جديدا ظهر فجأة في البلاد. أجد أن الاسم السياسي تغير بينما استمرت الكتلة السكانية التي عاشت في المرتفعات منذ العصور الحورية والأورارتية.

واجه داريوس الأول تمردات في أرمينيا خلال السنوات الأولى من حكمه. وأرسل قوات لإعادة السيطرة عليها. وتبين هذه الأحداث أن المنطقة لم تكن مجرد ولاية هامشية صامتة، بل كانت تمتلك قوة محلية قادرة على المقاومة وتنظيم الحركة العسكرية.

بعد تثبيت الحكم الأخميني أصبحت أرمينيا جزءا من النظام الإمبراطوري الذي اعتمد على الأقاليم والضرائب والخدمة العسكرية. ولم يحاول الفرس إلغاء جميع السلطات المحلية، بل استفادوا من العائلات الحاكمة ومن البنية الاجتماعية الموجودة في البلاد.

الضرائب والطريق الملكي

وضع هيرودوت أرمينيا ضمن منطقة ضريبية واسعة كانت تؤدي إلى الخزينة الأخمينية أربعمئة وزنة بابلية من الفضة. ولا أتعامل مع هذه المنطقة الضريبية على أنها مطابقة تماما لحدود أرمينيا السياسية، لأن النظام الضريبي الأخميني لم يكن دائما مطابقا للتقسيمات الإدارية المعروفة.

كانت أرمينيا غنية بالماشية والخيول والحبوب والمعادن والخشب. كما ساعدت الأنهار والوديان

والسهول المرتفعة على قيام مجتمعات زراعية
مستقرة. ولهذا كانت البلاد مهمة اقتصاديا وعسكريا
للإمبراطورية.

مر الطريق الملكي الأخميني عبر مناطق قريبة من
أرمينيا ووصل بين قلب الإمبراطورية ومناطق
الأناضول. وكانت الطرق الأرمينية جزءا من شبكة
المواصلات التي استخدمها الجنود والرسل والتجار
والموظفون.

فرض الموقع على السكان التزامات ثقيلة، لكنه فتح
البلاد أيضا أمام حركة واسعة من البشر والبضائع
والأفكار. دخلت التأثيرات الإيرانية إلى أرمينيا عبر
الإدارة والجيش والعائلات الحاكمة، بينما احتفظت
القرى والمناطق الجبلية بكثير من تقاليدها المحلية.

الحكم المحلي

لم تكن السلطة الأخمينية حاضرة في كل قرية بصورة مباشرة. اعتمد الملوك الأخمينيون على حكام الأقاليم والأمراء المحليين والوجهاء الذين جمعوا الضرائب وحافظوا على الطرق وقدموا الجنود والخيول عند الحاجة.

ساعد هذا النظام على استمرار النخب القديمة. وربما انتقلت بعض العائلات التي خدمت النظام الأورارتي إلى النظام الأخميني بعد أن غيرت ولاءها السياسي وأسماءها وأسلوب ظهورها الرسمي.

أرى أن هذه الاستمرارية مهمة لفهم تشكل أرمينيا. فالدولة الأخمينية لم تنشئ المجتمع الأرمني من الصفر، بل وضعت سلطتها فوق مجتمع قديم يحمل ميراث المرتفعات الحوري الأورارتي.

قدم القائد والمؤرخ اليوناني زينوفون وصفا مهما للبلاد عندما مر بها مع الجنود اليونانيين في بداية القرن الرابع قبل الميلاد. تحدث عن القرى

والمخازن والحبوب والنبذ والحيوانات وعن الشتاء
القاسي والجبال. وتكشف روايته وجود حياة ريفية
مستقرة ومنظمة، رغم الصراعات السياسية
والعسكرية.

ذكر زينوفون أيضا وجود سلطة فارسية ومحلية في
أرمينيا. وهذا يؤكد أن الإدارة الأخمينية عملت من
خلال شبكة من الحكام والموظفين والزعماء، ولم
تكن مجرد احتلال عسكري مؤقت.

السلالة البيروندية

برزت في أرمينيا خلال العهد الأخميني سلالة
عرفت باسم البيرونديين. ويرتبط اسمها بصيغة
أورونتيس في المصادر اليونانية وبصيغة يرفاند في
التقليد الأرمني.

كانت أصول السلالة متأثرة بالعالم الإيراني، ودخل
بعض أفرادها في علاقات مصاهرة مع الأسرة

الأخمينية. لكن السلالة تحولت مع الزمن إلى بيت حاكم مرتبط بأرمينيا وبأرضها ونخبها المحلية.

لا أجد تناقضا بين الأصل الإيراني لبعض أسماء الحكام وبين استمرار المجتمع المحلي. فالسلالات الحاكمة في العالم القديم كانت كثيرا ما تتزوج من بيوت مختلفة وتتبنى لغات وألقابا متعددة. ولم تكن هوية السكان تتغير آليا كلما تغير أصل الملك أو اسم الأسرة الحاكمة.

ظهر أورونتيس الأول في القرن الرابع قبل الميلاد بوصفه حاكما بارزا ارتبط بالعائلة الأخمينية عن طريق المصاهرة. وتكشف مكانته عن اندماج الطبقة الحاكمة في أرمينيا داخل النظام الأرستقراطي للإمبراطورية.

ومع ذلك لم يكن اليرونديون موظفين عابرين. فقد تحولوا إلى قوة محلية واستمر نفوذهم بعد انهيار الدولة الأخمينية. وهذا الاستمرار يدل على أنهم بنوا

قاعدة سياسية داخل أرمينيا، ولم يعتمدوا فقط على دعم الملوك الفرس.

توشبا في العهد الأخميني

تقدم قلعة وان مثالا واضحا على استمرار أهمية المراكز الأورارتية. فقد كانت توشبا عاصمة أورارتو، ثم بقي موقعها مهما بعد سقوط المملكة.

على صخرة وان يوجد نقش ملكي ثلاثي اللغات يعود إلى الملك خشايارشا. كتب النص بالفارسية القديمة والعلامية والبابلية. وتشير صياغته إلى أن العمل في موضع النقش بدأ في عهد داريوس ثم أكمله خشايارشا.

اختيار صخرة توشبا لم يكن بلا معنى. فقد وضع الأخمينيون حضورهم الملكي في مركز قديم من مراكز السلطة الأورارتية. تغيرت اللغة والملكية، لكن قدسية الموقع وأهميته السياسية استمرت.

أرى في هذا المشهد صورة مكثفة لتاريخ أرمينيا.
الإمبراطورية الجديدة لم تمح أثر الإمبراطورية
السابقة، بل استخدمت موقعها وأضافت إليه نصها
ورمزها السياسي. وهكذا تراكمت طبقات التاريخ
فوق المكان نفسه.

التأثير الإيراني

ترك العصر الأخميني أثرا عميقا في الحياة السياسية
والثقافية الأرمنية. دخلت أسماء إيرانية إلى بيوت
النبلاء، وانتشرت ألقاب ومفاهيم مرتبطة بالإدارة
والبلاط والفرسان والملكية.

ظهر التأثير الإيراني أيضا في العقائد الدينية وفي
أسماء بعض الآلهة والطقوس. واستمر هذا التأثير
بعد نهاية الإمبراطورية الأخمينية بقرون طويلة،
لأن العلاقات بين أرمينيا وإيران لم تكن محصورة
بفترة حكم واحدة.

كما دخلت إلى اللغة الأرمنية لاحقا كلمات كثيرة من اللغات الإيرانية. لكن وجود هذه الكلمات لا يجعل اللغة الأرمنية لغة إيرانية، كما لا يجعل السكان الإيرانيين أصلا. إنه يكشف عمق الاتصال السياسي والاجتماعي والثقافي بين أرمينيا والعالم الإيراني.

أميز هنا بين لغة السلطة وبين أصول السكان. فقد تتبنى الطبقة الحاكمة أسماء فارسية وتقاليد بلاطية إيرانية، بينما تواصل المجتمعات المحلية لغاتها ولهجاتها وعاداتها القديمة.

ضمن هذا التفاعل استمر الميراث الحوري الأورارتي في أسماء الأماكن وفي أنظمة الري وفي العمارة وفي تقاليد القرى والحصون. لم يكن التأثير الإيراني بديلا كاملا عن القديم، بل أصبح طبقة جديدة اندمجت معه.

الأرمن في الجيش الأخميني

قدمت أرمينيا الجنود والخيول إلى الجيش الأخميني.
وكانت شهرة المرتفعات بتربية الخيول تجعلها مهمة
للقوات الملكية وللاتصالات العسكرية.

شارك مقاتلون من أرمينيا في حملات
الإمبراطورية، وحملوا أسلحة وملابس تعكس بيئتهم
المحلية وتأثير النظام العسكري الأخميني. وربطت
الخدمة العسكرية نخب البلاد بالمركز
الإمبراطوري، لكنها منحتها أيضا خبرة في التنظيم
والقيادة.

عندما واجه داريوس الثالث الإسكندر المقدوني في
معركة غوغملا سنة 331 قبل الميلاد شاركت
قوات من أرمينيا في الجيش الأخميني. وتذكر
المصادر قادة مرتبطين بأرمينيا، من بينهم
أورونتيس وميثرأوستيس.

توضح هذه المشاركة أن أرمينيا لم تكن منفصلة عن
مصير الإمبراطورية. لكنها تبين أيضا وجود قيادة
محلية قادرة على جمع القوات والمشاركة باسم
الإقليم.

نهاية الحكم الأخميني

أدى انتصار الإسكندر المقدوني في غوغملا إلى
انهيار السلطة الأخمينية الكبرى. ومع سقوط
داريوس الثالث بدأت مرحلة سياسية مضطربة في
أرمينيا والأناضول وإيران.

لا أعتقد أن الإسكندر فرض سيطرة مستقرة على
جميع أجزاء أرمينيا. فقد كانت البلاد جبلية وواسعة،
وكانت العائلات المحلية قادرة على الاحتفاظ بقوتها.
وتذكر المصادر أن الإسكندر عين ميثرينيس حاكما
على أرمينيا، لكن مدى سلطته الفعلية داخل البلاد
غير واضح.

أصبحت أرمينيا بعد ذلك منطقة تتمتع بقدر من
الاستقلال تحت قيادة اليرونديين. وبذلك لم يؤد
سقوط الأخمينيين إلى خضوع كامل للمقدونيين، بل
منح الحكام المحليين فرصة لتقوية مواقعهم.

أرمينيا بعد الإسكندر

توفي الإسكندر سنة 323 قبل الميلاد، وانقسمت
إمبراطوريته بين قادته. دخل الشرق الأدنى في
صراعات طويلة بين الممالك الهلنستية، وخاصة
الدولة السلوقية.

وجدت أرمينيا نفسها بين القوى الجديدة. خضعت
بعض مناطقها للنفوذ السلوقي في أوقات معينة، بينما
احتفظت مناطق أخرى بحكامها المحليين. وكانت
العلاقة بين الملوك السلوقيين واليرونديين تتغير
حسب موازين القوى.

لم تكن السيطرة الخارجية متساوية في جميع أنحاء البلاد. كانت المراكز القريية من طرق التجارة والمدن أكثر تعرضا للنفوذ اليوناني، بينما احتفظت المناطق الجبلية والريفية باستقلالها وتقاليدها المحلية بدرجة أكبر.

الثقافة الهلنستية

دخلت الثقافة اليونانية إلى أرمينيا من خلال التجارة والدبلوماسية والجيش والبلاط. استعملت اللغة اليونانية في بعض المراسلات والنقوش، وظهرت تأثيرات يونانية في النقود والفنون وتخطيط المدن.

لكن هذا التأثير لم يحول أرمينيا إلى بلاد يونانية. فقد بقيت النخب متأثرة بالتقاليد الإيرانية، واستمرت القاعدة السكانية في حمل ميراث المرتفعات القديمة. ولهذا نشأت ثقافة مركبة جمعت عناصر حورية أورارتية وإيرانية ويونانية.

أرى أن قوة أرمينيا التاريخية ظهرت في قدرتها على استيعاب المؤثرات من دون فقدان جذورها. فقد أخذت من الفرس نظم الحكم والبلاط، وأخذت من اليونانيين أدوات التعبير السياسي والثقافي، لكنها أعادت صياغة هذه العناصر داخل بيئتها الخاصة.

أرمافير واستمرار المراكز القديمة

كانت أرمافير من أهم المراكز السياسية في أرمينيا خلال العصر البيروندي. وقد ارتبط موقعها بالمشهد العمراني القديم القريب من مدينة أرغيشتيخينيلي الأورارتية.

تكشف النقوش اليونانية التي عثر عليها في أرمافير عن وجود ثقافة هلنستية في البلاط. لكنها عثر عليها داخل منطقة تحمل تاريخاً أورارتياً عميقاً. وهذا يوضح مرة أخرى أن الجديد لم يرق فوق فراغ.

تحولت المراكز القديمة وأعيد استخدامها بدلا من
اختفائها. تغيرت أسماء المدن ووظائفها، لكن السكان
استمروا في الاستفادة من القنوات والأراضي
الزراعية والحصون والطرق التي أنشئت في
العصور السابقة.

بذلك كانت أرمافير حلقة تصل بين أورارتو
وأرمينيا اليروندية. وعندما استعمل حكامها اللغة
اليونانية في بعض شؤونهم لم يتخلوا عن الأرض
التي ورثوها، بل أضافوا إليها لغة سياسية جديدة.

تعدد المراكز الأرمنية

لم تكن أرمينيا في العصر الهلنستي دولة موحدة
طوال الوقت. ظهرت أرمينيا الكبرى وسوفين
وأرمينيا الصغرى بوصفها مناطق سياسية متميزة.

كانت هذه المناطق مرتبطة بالجغرافيا وبشبكات الطرق والجبال والأنهار. كما ارتبط بعضها بفروع من السلالة اليروندية أو بعائلات محلية أخرى.

لا أتعامل مع هذا الانقسام على أنه غياب للهوية. كانت الهويات القديمة كثيرا ما تتكون داخل أقاليم متعددة قبل أن تتوحد سياسيا. وقد احتفظت هذه المناطق بعلاقات لغوية وثقافية ودينية، حتى عندما اختلف حكامها وتحالفاتها.

في حدود سنة 200 قبل الميلاد ارتبط اسم الملك يرفاند بتأسيس مدينة يرفاندشات بحسب الرواية الأرمنية المتأخرة. ولا يمكن قبول جميع تفاصيل هذه الرواية من دون نقد، لكنها تحفظ ذكرى انتقال المركز الملكي إلى مدينة جديدة حملت اسم الحاكم.

صعود أرتاشيس

في نهاية القرن الثالث قبل الميلاد أعاد الملك السلوقي أنطيوخوس الثالث توسيع نفوذه في المنطقة. وعين أرتاشيس قائدا في أرمينيا الكبرى، بينما تولى زاريادريس السلطة في سوفين.

بعد هزيمة أنطيوخوس الثالث أمام الرومان في معركة مغنيسيا ضعفت السيطرة السلوقية. واستفاد أرتاشيس وزاريادريس من هذا الضعف، وأعلنا استقلالهما بوصفهما ملكين.

أصبح أرتاشيس الأول مؤسس السلالة الأرتاشيسية في أرمينيا الكبرى. ولا أقدم ظهوره باعتباره بداية شعب جديد أو قطيعة كاملة مع اليرونديين. فهناك نقاش حول صلاته بالعائلة السابقة، كما أن انتقال السلطة في العالم القديم كان كثيرا ما يجمع بين الصراع والاستمرار والمصاهرة.

بدأ أرتاشيس مشروعا سياسيا جديدا هدفه توحيد أجزاء واسعة من البلاد وتقوية الحكم المركزي.

وفي عهده دخلت أرمينيا مرحلة المملكة المستقلة التي ستبلغ ذروة قوتها في عهد تيغران الكبير.

خلاصة الفصل

أرى أن العصرين الأخميني والهلنستي لم يمحوا الجذور الحورية الأورارتية لأرمينيا. لقد أضافا إليها طبقتين عميقتين من التأثير الإيراني واليوناني.

في العصر الأخميني دخلت أرمينيا نظاما إمبراطوريا واسعا، وظهرت فيها سلالة محلية متأثرة بإيران. وفي العصر الهلنستي دخلت اللغة والثقافة اليونانية إلى البلاط والمدن، لكنهما لم تلغيا التقاليد المحلية.

استمرت الجبال والقرى والمدن القديمة، واستمرت النخب الإقليمية، وبقيت توشبا وأرمافير والمراكز المرتبطة بالماضي الأورارتي حاضرة في الحياة السياسية الجديدة.

لم يتشكل الشعب الأرمني من جماعة واحدة وصلت في لحظة محددة، بل تكوّن داخل المرتفعات من اندماج تاريخي طويل. وفي قلب هذا التكوين أضع الحوريين والأورارتيين بوصفهم القاعدة السكانية والحضارية القديمة التي حملت البلاد عبر تغير الدول والأسماء.

وهكذا انتقلت أرمينيا من الحكم الأخميني إلى العصر الهلنستي، ومن السلالة البيروندية إلى السلالة الأرتاشيسية، من دون أن تفقد صلتها بأرضها القديمة.

وفي الفصل الرابع عشر أنتقل إلى تيغران الكبير، الملك الذي حول أرمينيا إلى قوة إقليمية واسعة، ووصل بحدودها ونفوذها إلى مرحلة لم تعرفها من قبل.

الفصل الرابع عشر

تيغران الكبير وبناء القوة الأرمنية

الجيش الأرمني في عهد تيغران

لم يكن توسع تيغران الكبير ممكنا من دون جيش منظم قادر على القتال في الجبال والسهول. وقد اعتمد هذا الجيش على القوات الأرمنية الأساسية، ثم اتسع بانضمام وحدات من الممالك والأقاليم التابعة.

شكّل الفرسان المدرعون القوة الضاربة في جيش تيغران. كان الفارس يرتدي درعا يغطي أجزاء كبيرة من جسده، وقد يغطي الحصان أيضا بصفائح أو حلقات معدنية. وحمل هؤلاء الفرسان الرماح الطويلة التي استخدمت في الهجوم المباشر على صفوف المشاة.

كانت هذه الطريقة في القتال منتشرة في العالم الإيراني والفرثي، لكنها وجدت في أرمينيا بيئة

مناسبة بسبب شهرة البلاد بتربية الخيول وامتلاكها طبقة من النبلاء المحاربين.

لم يكن الفارس المدرع مجرد جندي عادي. فقد كان في الغالب من طبقة النبلاء أو من أتباعها، وكان توفير الحصان والسلاح والدرع يحتاج إلى ثروة كبيرة. ولهذا ارتبط النظام العسكري بالنظام الاجتماعي والأراضي التي امتلكتها الأسر الأرمنية الكبرى.

إلى جانب الفرسان ضم الجيش المشاة والرماة وحملة المقاليع والقوات الخفيفة. كما شاركت فيه وحدات جاءت من أديابين وكوردوين وميديا أتروباتين ومناطق أخرى خضعت لسلطة تيغران.

تكمن قوة هذا الجيش في تنوعه، لكن هذا التنوع كان أيضا أحد أسباب ضعفه. كانت الوحدات القادمة من الأقاليم البعيدة تختلف في لغاتها وأساليب تدريبها ودرجة ولائها. وعندما تعرض الجيش للهزيمة أمام

الرومان لم تستطع قيادته المحافظة على تماسك جميع هذه القوات.

أجد هنا فرقا واضحا بين الجيش الذي فتح الأقاليم وبين الجيش الذي كان عليه الدفاع عن إمبراطورية واسعة. نجح تيغران في استخدام الحركة السريعة والفرسان خلال حملاته الشرقية، لكنه واجه أمام الرومان جيشا محترفا يمتلك خبرة طويلة في الحصار والمناورة وتنظيم صفوف المشاة.

تيغران والاستفادة من الجغرافيا

كانت المرتفعات الأرمنية حصنا طبيعيا للمملكة. فالجبال والوديان والأنهار والشتاء القاسي جعلت احتلال البلاد أمرا صعبا حتى على الجيوش الكبرى.

استفاد تيغران من هذه الطبيعة عندما انسحب من المناطق الجنوبية بعد سقوط تيغراناكيرت. فكلما

تقدم الرومان نحو الشمال ازدادت المسافات بينهم وبين قواعد إمدادهم، وأصبح نقل الطعام والسلاح أكثر صعوبة.

لم تكن الجغرافيا مجرد خلفية للحوادث، بل كانت عنصرا مشاركا في صنع التاريخ. فقد ساعدت السهول الجنوبية تيغران على التوسع نحو بلاد الرافدين وسوريا، بينما ساعدته الجبال الشمالية على حماية قلب مملكته.

أرى في ذلك استمرارا لما عرفتته الممالك الحورية والأورارتية. فقد استخدمت هذه الممالك الجبال والحصون والطرق المرتفعة لبناء قوتها ومواجهة الإمبراطوريات القادمة من السهول.

عرف سكان البلاد الممرات الجبلية ومصادر المياه ومسالك الشتاء. وهذه المعرفة المحلية منحت الجيش الأرمني قدرة على الحركة والمقاومة عندما دخلت القوات الرومانية إلى عمق المملكة.

الاقتصاد وطرق التجارة

لم تعتمد قوة تيغران على الغنائم العسكرية وحدها. فقد أصبحت مملكته تسيطر على طرق تجارية مهمة تصل إيران وبلاد الرافدين بالأناضول وسوريا والبحر المتوسط.

مرت عبر هذه الطرق المعادن والخيول والمنسوجات والحبوب والنبذ والمنتجات الحرفية. كما مرت القوافل التي حملت البضائع القادمة من الشرق إلى المدن الساحلية.

ساعدت السيطرة على نصيبين والرها ومناطق أعالي الفرات على جمع الضرائب وتأمين الحركة التجارية. وكانت المدن السورية والفينيقية مصدرا إضافيا للثروة بسبب أسواقها وموانئها واتصالها بالعالم المتوسطي.

استخدم تيغران هذه الموارد في تمويل الجيش وبناء المدن وإقامة البلاط الملكي. كما سمحت له الثروة بضرب النقود التي حملت صورته وألقابه.

لكن الاقتصاد الواسع بقي مرتبطا باستمرار السيطرة العسكرية على الطرق والمدن. وعندما خسر تيغران سوريا وقيليقية وبعض مناطق بلاد الرافدين فقد جانبا كبيرا من موارده الخارجية.

أما اقتصاد قلب أرمينيا فاستمر معتمدا على الزراعة وتربية الحيوانات والحرف واستخراج المعادن. وكان هذا الاقتصاد المحلي أكثر ثباتا من ثروة الفتوحات، لأنه ارتبط مباشرة بالأرض والسكان.

النقود وصورة الملك

تعد نقود تيغران الكبير من أهم الوثائق التي تركها عهده. فهي لا تقدم لنا صورة الملك فقط، بل تكشف

الطريقة التي أراد أن يظهر بها أمام رعاياه وحلفائه
وخصومه.

ظهر تيغران على نقوده مرتديا التاج الأرمني
المرتفع. وزين التاج بنجمة تحيط بها رموز ملكية.
وكان شكله مختلفا عن التيجان اليونانية البسيطة،
مما جعله علامة واضحة على الملكية الأرمنية
الشرقية.

كتبت الألقاب باللغة اليونانية لأن هذه اللغة كانت
واسعة الاستخدام في التجارة والمدن الهلنستية. كما
ساعدت الكتابة اليونانية على جعل النقود مفهومة في
سوريا والأناضول والمناطق الخاضعة للتأثير
الهلنستي.

ظهر على بعض النقود لقب ملك الملوك. ولم يكن
اللقب موجها إلى الأرمن وحدهم، بل كان رسالة إلى
الملوك الخاضعين وإلى الفرثيين والسلوقيين
والرومان.

حملت بعض القطع صورة إلهة المدينة أنطاكية
جالسة، وتحتها رمز نهر العاصي. وهذا يدل على
أن تيغران ضرب نقوده في أنطاكية أو احتفل من
خلالها بسيطرته على المدينة.

كانت صورة النقود مزيجا مدروسا. فاللغة والتصميم
متأثران بالعالم الهلنستي، بينما ينتمي التاج واللقب
وفكرة الملكية العليا إلى التقليد الشرقي الإيراني
الأرمني.

لا أرى في هذا المزيج تناقضا. فقد خاطب تيغران
شعوبا متعددة، وكان عليه أن يستخدم لغة سياسية
يفهمها سكان المدن اليونانية بقدر ما يفهمها النبلاء
الشرقيون.

البلاط الملكي

أحاط تيغران نفسه بمظاهر ملكية كبيرة تتناسب مع لقب ملك الملوك. وكان الملوك والأمراء التابعون يقفون في حضرته ويشاركون في مواكبه ومجالسه.

عمل البلاط مركزاً لاتخاذ القرارات واستقبال السفراء وتوزيع المناصب والضرائب. كما كان مكاناً للتنافس بين الأسر الكبيرة والقادة العسكريين.

استقبل تيغران ممثلين عن روما والفرثيين والمدن السورية وممالك الأناضول. وكانت المفاوضات جزءاً أساسياً من حكمه، لأن المملكة لم تستطع الاعتماد على القوة العسكرية وحدها.

استخدم الزواج السياسي لتقوية التحالفات. فزواجه من كليوباترا بنت ميثرادات السادس ربطه ببونتوس، كما تزوج أبناؤه وبناته من بيوت ملكية أخرى.

لكن المصاهرة لم تضمن الولاء دائماً. فقد ساعدت علاقة تيغران الأصغر بالأسرة الفرثية على تمرده ضد والده. وهذا يكشف أن الزواج السياسي كان سلاحاً يمكن استخدامه لتثبيت السلطة أو الانقلاب عليها.

الدين في المملكة

لم يفرض تيغران ديانة واحدة على جميع المناطق الخاضعة له. فقد ضمت مملكته تقاليد دينية أرمنية وإيرانية ويونانية وسورية ورافدية.

في أرمينيا استمر تعظيم آلهة مثل أناهيد وميهر وفاهاغن وأرامازد. حملت هذه الآلهة أسماء وتأثيرات إيرانية واضحة، لكنها اندمجت مع معتقدات محلية أقدم.

لا أعتقد أن السكان تخلوا عن موروثهم الحوري والأورارتي بمجرد دخول أسماء جديدة إلى المعابد.

فقد تستمر وظائف الآلهة القديمة تحت أسماء مختلفة، وتتغير لغة الطقوس بينما تبقى الأماكن المقدسة والاحتفالات مرتبطة بالأرض والماء والجبال والشمس والعاصفة والخصوبة.

كان فاهان مرتبطا بالقوة والنار والحرب، وهي صفات تذكرني بمكانة آلهة العاصفة في العالم الحوري. وكانت أناهيد مرتبطة بالخصوبة والمياه والحماية، وهي وظائف عرفت في ديانات المرتفعات قبل ظهور الدولة الأرمنية.

لا أقول إن كل إله أرمني هو الإله الحوري نفسه، فذلك يحتاج إلى أدلة مباشرة. لكنني أجد استمرارا في الوظائف والطقوس والأماكن المقدسة، حتى عندما تغيرت الأسماء واللغات.

سمح تيغران للمناطق السورية والهلمستية بالاحتفاظ بمعابدها. وكانت هذه السياسة ضرورية لحكم مدن كبيرة تمتلك مؤسسات دينية واقتصادية قوية.

سياسة نقل السكان

استخدم تيغران نقل السكان لتعمير عاصمته الجديدة وتقوية المناطق الاستراتيجية. فنقل تجارا وحرفيين وسكانا من مدن كبادوكيا وقيليقية وغيرها إلى تيغراناكيرت.

من الناحية السياسية كان يريد إنشاء عاصمة غنية خلال فترة قصيرة. وكان يحتاج إلى البنائين والتجار وأصحاب المهن الذين يستطيعون تحويلها إلى مركز اقتصادي وإداري.

لكنني لا أبرر الجانب القسري من هذه السياسة. فقد اقتلع كثير من الناس من مدنهم وأراضيهم، وأجبروا على العيش في عاصمة لم يختاروها.

ظهر ضعف هذه السياسة عند حصار تيغراناكيرت. فبعض السكان لم يدافعوا عن المدينة، لأن ارتباطهم

بأوطانهم الأصلية كان أقوى من ارتباطهم بمشروع الملك.

تعلمنا هذه الحادثة أن بناء المدن لا يتحقق بالأسوار والقصور وحدها. فالمدينة تحتاج إلى سكان يشعرون بأنها وطنهم، لا مجرد مكان نقلوا إليه بأمر ملكي.

مشكلة المصادر القديمة

وصلت معظم أخبار تيغران عن طريق مؤرخين يونانيين ورومان كتبوا من زاوية الصراع مع روما. وقد صور بعضهم الملك الأرمني حاكما شرقيا متكبرا، وضخموا أعداد جيشه وثروته.

لا أرفض هذه المصادر، لأنها تقدم معلومات أساسية عن الحروب والدبلوماسية والمدن. لكنني أقرأها بحذر وأقارن بينها، ولا أقبل جميع أرقامها وخطبها وقصصها كما لو كانت سجلا محايدا.

كان تيغران حليفا لميثرادات السادس، أحد أخطر أعداء روما. ولهذا نظر إليه المؤرخون المرتبطون بالعالم الروماني بعيون الخصومة.

أما الروايات الأرمنية فقد كتبت بعد عهده بقرون، وخلطت أحيانا بين أسماء الملوك والأزمنة. ولذلك لا يمكن الاعتماد عليها وحدها من دون النقود والنقوش والمصادر المعاصرة أو القرينة من الأحداث.

أعتمد على النقود بوصفها شهادة مباشرة صادرة عن الدولة نفسها. فهي تؤكد الألقاب وتبين صورة الملك وانتشار السلطة واللغة المستخدمة، لكنها أيضا تحمل دعاية رسمية ولا تخبرنا بجميع جوانب الحياة الاجتماعية.

كما تساعد الجغرافيا والآثار في تصحيح الروايات الأدبية. ولهذا يبقى تحديد موقع تيغراناكيرت

الأصلي مسألة تحتاج إلى حفريات وأدلة مادية
حاسمة، لا إلى الحماس وحده.

مكانة كوردوين وأديابين

كانت كوردوين وأديابين من المناطق المهمة في
الصراع بين أرمينيا والفرثيين وروما. فقد وقعتا عند
مداخل المرتفعات وعلى طرق دجلة وبلاد الرافدين.

خضعتا لنفوذ تيغران خلال مرحلة توسعه، لكن
حكاهما احتفظوا بدرجات مختلفة من السلطة
المحلية. ولم تكن تبعيتهما مطابقة لضم إداري كامل
بالمعنى الحديث.

مثلت كوردوين معبرا بين أرمينيا وبلاد الرافدين،
ولذلك تنافست عليها القوى المحيطة. وكانت
السيطرة عليها تسمح بحماية الطرق الجنوبية
والوصول إلى المناطق الواقعة حول دجلة.

أما أديابين فكانت مملكة ذات مركز سياسي في
منطقة أربيل، وامتلكت موقعا مهما بين نينوى
والمرتفعات الإيرانية والأرمنية.

أجد أن دخول هذه المناطق في مملكة تيغران أعاد
جمع أجزاء من المجال الجغرافي الذي شهد في
الآزمنة الأقدم وجود الحوريين وممالك المرتفعات.
لكنه كان جمعا سياسيا مؤقتا، ولم يكن إلغاء لهويات
السكان المحلية.

تيغران وروما

لم تكن الحرب بين تيغران وروما صراعا قوميا
بالمفهوم الحديث. كانت مواجهة بين مملكة أرمنية
توسعية وجمهورية رومانية توسعية، وكل واحدة
منهما استخدمت التحالفات والملوك المحليين لخدمة
مصالحها.

لم يدخل لوكولوس أرمينيا من أجل تحرير الشعوب الخاضعة لتيغران، بل دخلها لتوسيع النفوذ الروماني والقضاء على القوة التي منحت ميثرادات الحماية.

كما لم تكن جميع حملات تيغران دفاعية. فقد فتح أراضي وأخضع ملوكا ونقل سكانا وفرض سلطته على مدن بعيدة.

أقول ذلك لأن كتابة التاريخ تحتاج إلى التمييز بين الاعتزاز بتاريخ أرمينيا وبين تحويل كل عمل قام به ملك أرمني إلى عمل عادل. كان تيغران ابن عصره، وتصرف مثل ملوك عصره، فحارب وفتح وعقد التحالفات وفرض الضرائب.

تكمُن أهميته في أنه جعل أرمينيا طرفا رئيسيا في الصراع على الشرق، وأجبر روما والفرثيين على التعامل معها بوصفها قوة لا يمكن تجاهلها.

بعد ضياع الإمبراطورية

عندما تخلى تيغران عن فتوحاته لبومبيوس لم تعد أرمينيا القوة الثالثة المهيمنة بين روما والفرثيين. وأصبح التنافس بين الإمبراطوريتين الكبيرتين يضغط على المملكة من جهتين.

مع ذلك لم تختف الدولة الأرتاشيسية. استمر العرش واستمرت أرمينيا في إدارة شؤونها الداخلية، وإن أصبحت سياستها الخارجية مقيدة بالعلاقات مع روما وفرثيا.

اختار تيغران الحفاظ على الدولة بدلا من خوض حرب أخيرة قد تنتهي باحتلال البلاد. وأرى أن هذه التسوية تظهر خبرته السياسية في سنواته الأخيرة.

كان الملك الذي توسع إلى أنطاكية قادرا على إدراك أن الظروف تغيرت. ولذلك قبل خسارة الأطراف كي يحافظ على المركز.

ميراث تيغران الكبير

ترك تيغران في الذاكرة الأرمنية صورة الملك
القوي الذي وحد البلاد ورفع مكانتها. وأصبحت
شخصيته رمزا للسيادة والقدرة على مواجهة
الإمبراطوريات.

لكنني أجد أن ميراثه الأعمق يتجاوز اتساع الحدود.
فقد كشف عهده قدرة أرمينيا على الجمع بين
حضارات متعددة وتوظيفها في بناء دولة مستقلة.

ورث نظاما اجتماعيا متجذرا في المرتفعات،
واستخدم التقاليد الملكية الإيرانية، وتبنى أدوات
الثقافة الهلنستية، وسيطر على مدن سورية ورافدية،
ثم واجه أقوى جيش في البحر المتوسط.

لم تستمر إمبراطوريته طويلا، لأن الظروف التي
سمحت بقيامها كانت استثنائية. ضعف السلوقيون،
واضطرب الفرثيون، وانشغلت روما بصراعاتها

الداخلية. وعندما استعادت هذه القوى قدرتها على التدخل تقلصت فتوحاته.

لكن المملكة الأرمنية بقيت بعد زوال الإمبراطورية. وبقاء القلب الأرمني هو الذي سمح باستمرار الدولة والثقافة والهوية خلال العصور التالية.

أرى تيغران الكبير حلقة بارزة في السلسلة التاريخية التي أتابعها في هذا الكتاب. لم يخلق شعب أرمينيا في القرن الأول قبل الميلاد، بل قاد شعبا تكون فوق أرض ذات تاريخ حوري أورارتي عميق، ثم مر بتجارب أخمينية وإيرانية وهنستية.

كان عهده ذروة سياسية لذلك التراكم الطويل. فقد ظهرت أرمينيا للمرة الأولى قوة قادرة على حكم أقاليم واسعة خارج المرتفعات، وعلى منافسة ملوك فرثيا والسلوقيين والدخول في مواجهة مباشرة مع روما.

وهكذا لا أضع تيغران خارج الجذور الحورية
الأورارتية، بل أراه وارثا سياسيا متأخرا لها.
تغيرت اللغة الرسمية والأسماء والألقاب، لكن
الأرض والسكان والذاكرة الحضارية استمرت في
حمل عناصر العالم القديم إلى الدولة الأرمنية.

الفصل الخامس عشر

المسيحية وبداية المرحلة الأرمنية الجديدة
أصول الأرمن من منظور حوري أورارتي
من الدولة الأرتاشيسية إلى الدولة الأرشاكونية
بعد وفاة تيغران الكبير استمرت المملكة الأرمنية،
لكنها دخلت مرحلة طويلة من الصراع بين روما
والقوى الإيرانية. انتهت السلالة الأرتاشيسية في
بداية القرن الأول للميلاد، وأصبح العرش الأرمني
موضع تنافس بين المرشحين الذين دعمتهم روما
والأمراء الذين دعمتهم الدولة الفرثية.

لم تفقد أرمينيا هويتها خلال هذه الاضطرابات. فقد
حافظت الأسر المحلية على أراضيها وقلاعها

وقواتها، وظلت المرتفعات الأرمنية قادرة على مقاومة أي ملك حاول الحكم من دون موافقة النبلاء.

في سنة ثلاث وستين للميلاد توصلت روما والفرثيون إلى اتفاق بشأن أرمينيا. واعترف الطرفان بتيريدات الأول، شقيق الملك الفرثي، ملكا على البلاد. ثم توجه تيريدات إلى روما سنة ست وستين، وتسلم التاج من الإمبراطور نيرون.

كان هذا الاتفاق حلا وسطا. ينتمي الملك إلى الأسرة الأرشاكونية الفرثية، لكنه يتسلم اعترافه الملكي من روما. ومنذ ذلك الوقت أصبحت السلالة الأرشاكونية مرتبطة بالعرش الأرمني، ثم استقر حكم فرعها الأرمني بصورة أقوى في أواخر القرن الثاني للميلاد.

لم يؤد الأصل الفرثي للسلالة إلى تحويل أرمينيا إلى بلاد فرثية. فقد أصبحت الأسرة الحاكمة جزءا من المجتمع الأرمني، وارتبطت بالنبلاء والأرض والتقاليد المحلية. وتوضح موسوعة إيرانكا أن الفرع

الأرشاكوني حكم أرمينيا حتى سنة أربع مئة وثمان وعشرين.

المجتمع الأرمني قبل المسيحية

كانت أرمينيا قبل اعتناق المسيحية تمتلك عالما دينيا مركبا. اجتمعت فيه معتقدات محلية قديمة مع تأثيرات حورية وأورارتية وإيرانية ويونانية ورافدية.

عبد الأرمن أرامازد بوصفه إلها أعلى، وأناهيد بوصفها إلهة للخصوبة والمياه والحماية، وميهر المرتبط بالنور والعقود، وفاهاغن المرتبط بالنار والقوة والحرب، وتير المرتبط بالكتابة والحكمة.

حملت بعض هذه الآلهة أسماء إيرانية، لكن عبادتها داخل أرمينيا لم تكن نسخة مطابقة للديانة الإيرانية. فقد اندمجت صفاتها مع الآلهة والمعتقدات المحلية

التي عرفتھا المرتفعات منذ العصور الحورية
والأورارتية.

أجد صدى إله العاصفة الحوري تيشوب في المكانة
التي احتلها فاهّاگن بوصفه قوة محاربة مرتبطة
بالنار والعاصفة. كما أجد استمراراً لوظائف الإلهات
الحوريات والأورارتيات في عبادة أناهيد.

لا أقول إن فاهّاگن هو تيشوب نفسه أو إن أناهيد هي
إلهة حورية واحدة تغير اسمها. لكنني أقول إن
الشعوب لا تتخلى عن عالمها الديني دفعة واحدة.
فقد تتغير أسماء الآلهة، بينما تستمر وظائفها
ورموزها واحتفالاتها وأماكن عبادتها.

كانت المعابد تمتلك الأراضي والثروات والخدم.
وكان للكهنة نفوذ اجتماعي واقتصادي. وارتبطت
بعض الأسر النبيلة بمعابد معينة، كما ارتبطت
الأعياد الدينية بالزراعة والمياه والخصوبة والحرب
والسلطة الملكية.

لهذا لم يكن انتشار المسيحية مجرد تغيير في العقيدة، بل كان تحولاً في توزيع السلطة والأرض والثروة والمكانة الاجتماعية.

وصول المسيحية قبل اعتناق الدولة

لم تدخل المسيحية إلى أرمينيا في يوم واحد، ولم تبدأ فقط بعد اعتناق الملك تيريدات الثالث لها. كانت جماعات مسيحية موجودة قبل ذلك في مناطق جنوب أرمينيا المتصلة بالرها ونصيبين وبلاد الرافدين.

وصلت المسيحية من الجنوب عبر الطرق السريانية، كما وصلت من الغرب عبر كبادوكيا والأناضول الروماني. ولهذا حملت المسيحية الأرمنية المبكرة تأثيرين، أحدهما سرياني شرقي والآخر يوناني كبادوكي.

تنسب التقاليد الكنسية بداية التبشير في أرمينيا إلى
الرسولين تداوس وبرثلماوس. ومن هنا جاء وصف
الكنيسة الأرمنية بأنها رسولية.

أحترم هذه الرواية بوصفها جزءا من الذاكرة الدينية
الأرمنية، لكنني لا أقدم جميع تفاصيلها على أنها
أحداث تاريخية مثبتة بوثائق معاصرة. فالمصادر
التي ترويها متأخرة، ولا تسمح لي بتحديد مسار
الرسولين داخل أرمينيا بدقة.

ما أستطيع تأكيده هو أن المسيحية وصلت إلى بعض
المناطق الأرمنية قبل اعتناق البلاط الملكي لها، وأن
الروابط مع الرها وأنطاكية ونصيبين ساعدت على
انتشارها.

تريدات الثالث

تولى تيريدات الثالث العرش الأرمني في نهاية القرن الثالث للميلاد بدعم روماني، خلال مرحلة الصراع مع الدولة الساسانية.

كان الساسانيون قد أسقطوا الدولة الفرثية سنة مئتين وأربع وعشرين للميلاد، وأقاموا دولة مركزية قوية في إيران. وأصبح ملوك أرمينيا الأرشاكونيون ينظرون إليهم بوصفهم أعداء لأسرتهم الفرثية القديمة.

دفع هذا الصراع أرمينيا إلى الاقتراب من روما، رغم استمرار الثقافة الإيرانية داخل المجتمع الأرمني. كان الملك والنبلاء يحملون أسماء وتقاليد متأثرة بالعالم الإيراني، لكنهم دخلوا في مواجهة سياسية مع الساسانيين.

في هذا السياق ظهر غريغوريوس الذي عرف لاحقا باسم غريغوريوس المنور. وأصبح اسمه مرتبطا باعتناق الملك والدولة للمسيحية.

غريغوريوس المنور

تعتمد الرواية التقليدية عن غريغوريوس على كتاب تاريخ الأرمن المنسوب إلى أغاثانجيلوس، وهو نص وصل إلينا بصيغته المعروفة من القرن الخامس للميلاد.

تقول الرواية إن غريغوريوس كان ابن رجل يدعى أناك، وإن أناك قتل والد الملك تيريدات. نجا غريغوريوس وهو طفل، ونقل إلى قيصرية في كبادوكيا حيث تربى على المسيحية.

عاد غريغوريوس إلى أرمينيا ودخل في خدمة تيريدات. وعندما رفض تقديم الذبيحة للإلهة أناهيد تعرض للتعذيب، ثم ألقى به الملك في حفرة عميقة قرب أرتاشات.

ترتبط هذه الحفرة بالموقع المعروف باسم خور
فيراب. وتقول الرواية إن غريغوريوس بقي فيها
سنوات طويلة، وإن امرأة كانت تقدم إليه الطعام
سرا.

تتابع القصة أن الملك اضطهد جماعة من النساء
المسيحيات، وفي مقدمتهن هريبيسيمه وگایانه. وبعد
مقتلهن أصيب الملك بمرض شديد، ثم أخرج
غريغوريوس من الحفرة وعالجه وقاده إلى
المسيحية.

تحمل الرواية عناصر دينية ومعجزية واضحة. لذلك
أميز بين جوهر الحدث وبين التفاصيل التي صاغها
الأدب الكنسي لاحقاً.

أقبل أن غريغوريوس كان شخصية تاريخية رئيسية
في تأسيس الكنيسة الأرمنية، وأنه ارتبط بتحول
الملك والبلاط إلى المسيحية. أما مدة سجنه وطبيعة
مرض الملك وجميع تفاصيل العذاب والمعجزات

فأتعامل معها بوصفها جزءا من الرواية الإيمانية، لا سجلا إداريا معاصرا.

تاريخ اعتناق المسيحية

يحدد التقليد الأرمني سنة ثلاث مئة وواحدة للميلاد تاريخا لاعتناق أرمينيا المسيحية. وبهذا التقليد تعرف أرمينيا بأنها أول دولة اعتمدت المسيحية ديناً رسمياً.

لكنني أجد أن التاريخ يحتاج إلى توضيح. يرى عدد من الدارسين أن التحول الرسمي حدث في حدود سنة ثلاث مئة وأربع عشرة، بعد صدور سياسة التسامح مع المسيحيين في الإمبراطورية الرومانية.

ويستند هذا الرأي إلى ارتباط غريغوريوس بكنيسة قيصرية، وإلى احتمال تكريسه رئيساً للكنيسة الأرمنية في تلك الفترة. كما أن تيريدات كان حليفاً لروما، وكان من الصعب عليه إعلان المسيحية ديناً

للدولة في الوقت الذي كانت فيه السلطة الرومانية
تضطهد المسيحيين.

من الممكن أن تكون عملية التحول قد بدأت قبل
ذلك، ثم اكتمل تنظيم الكنيسة بعد سنة ثلاث مئة
وثلاث عشرة. ولهذا لا أحصر حدثا واسعا في يوم
واحد.

أذكر سنة ثلاث مئة وواحدة بوصفها التاريخ
الأرمني التقليدي، وأذكر سنة ثلاث مئة وأربع
عشرة بوصفها التاريخ الذي يرجحه عدد من
الباحثين المعاصرين. ولا أرى أن الاختلاف بين
التاريخين يقلل من أهمية الحدث.

المهم أن أرمينيا أصبحت في بداية القرن الرابع أول
مملكة معروفة جعلت المسيحية أساسا رسميا للدولة
قبل أن تتحول الإمبراطورية الرومانية نفسها إلى
دولة مسيحية كاملة.

تحول الملك والدولة

كان اعتناق تيريدات الثالث للمسيحية أكثر من قرار شخصي. فعندما اعتنق الملك الدين الجديد بدأ البلاط والجيش وأجزاء من طبقة النبلاء بالتحول معه.

أصبح غريغوريوس أول رئيس رسمي للكنيسة الأرمنية، وذهب إلى قيصرية في كبادوكيا لتلقي التكريس الكنسي. وبهذا ارتبطت الكنيسة الأرمنية في بدايتها بالمركز الكنسي في قيصرية.

بدأ إنشاء الأسقفيات في مناطق المملكة، واختير بعض رجال الدين الجدد من أبناء الأسر الكهنوتية القديمة. وكان ذلك وسيلة لنقل المعرفة والنفوذ من النظام الديني السابق إلى المؤسسة المسيحية الجديدة.

لم يكن جميع الكهنة قادرين على قراءة النصوص المسيحية، ولذلك استخدمت اليونانية والسريانية في

التعليم والعبادة. وكانت المواعظ تترجم شفها إلى لغة السكان.

أرى أن هذا الوضع خلق مشكلة كبيرة. فقد أصبحت أرمينيا مسيحية رسميا، لكن كتابها المقدس وطقوسها وتعليمها لم تكن مكتوبة بلغتها بعد.

المعابد القديمة

تروي المصادر المسيحية أن غريغوريوس والملك هدمًا عددًا من المعابد القديمة وأقاما الكنائس في أماكنها. ومن المحتمل أن يكون بعض هذا الهدم قد حدث بالفعل، لأن تأسيس الدين الجديد كان مرتبطًا بإضعاف المؤسسات الكهنوتية السابقة.

لكنني لا أتعامل مع الأمر على أنه اختفاء فوري لجميع المعتقدات القديمة. فقد استمرت الطقوس والعادات في القرى والمناطق الجبلية، وبقيت بعض الأعياد والرموز حاضرة بعد تغيير أسمائها.

تحولت أماكن مقدسة قديمة إلى مواقع مسيحية. وفي بعض الحالات بنيت الكنائس فوق أرض معبد سابق أو بالقرب منه. ولم يكن اختيار هذه المواقع عشوائياً، لأنها كانت معروفة للسكان وتحمل قداسة قديمة.

أرى في ذلك استمراراً للمكان مع تغير العقيدة. فالمجتمع احتفظ بالجبل والنبع والشجرة والموقع المقدس، لكنه أعاد تفسيرها داخل الدين الجديد.

لم تختف ذاكرة أناهيد وفاهاغن وميهر في لحظة واحدة. تسربت بعض عناصرها إلى الحكايات الشعبية والأعياد والقصص البطولية، بينما رفضت الكنيسة عبادتها رسمياً.

فاغار شابات وإتشميادزين

ارتبط تأسيس المركز الكنسي الأرمني بمدينة
فاغارشابات. وتقول الرواية إن غريغوريوس شاهد
في رؤيا المسيح ينزل من السماء ويحدد المكان الذي
يجب أن تبنى فيه الكنيسة.

حمل الموقع لاحقا اسم إتشميادزين، وأصبح مركزا
روحيا للكنيسة الأرمنية. ويعبر الاسم عن نزول
الابن الوحيد.

لا أستطيع إثبات جميع تفاصيل الرؤيا تاريخيا، لكن
أهمية فاغارشابات الكنسية ثابتة. فقد أصبحت
المدينة رمزا لاعتناق الدولة المسيحية ومركزا
للسلطة الدينية.

نشأت في المدينة كنائس ارتبطت بغريغوريوس
وهرييسيمه وگایانه. وأصبحت قصصهن جزءا
أساسيا من الذاكرة الدينية والفنية الأرمنية.

الدولة والكنيسة

منح الملوك والنبلاء الكنيسة أراضي وأملاكاً.
وأصبح للأساقفة نفوذ سياسي واجتماعي، كما تولوا
التعليم والقضاء في بعض الشؤون ورعاية الفقراء.

تداخلت رئاسة الكنيسة مع النظام الأرستقراطي. فقد
انتقلت الزعامة الكنسية مدة من الزمن داخل أسرة
غريغوريوس، كما انتقلت الإمارات والمناصب
داخل الأسر النبيلة.

لم تكن العلاقة بين الملك والكنيسة مستقرة دائماً. فقد
حاول بعض الملوك الحد من نفوذ رجال الدين، بينما
استخدمت الكنيسة مكانتها للدفاع عن مصالحها
وتعاليمها.

كما اختلف النبلاء في مواقفهم من المسيحية. تبنتها
بعض الأسر بسرعة، وقاومتها أسر أخرى خوفاً من
فقدان تقاليدها أو ممتلكاتها أو ارتباطها بالعالم
الإيراني.

لهذا أرفض الصورة التي تجعل جميع سكان أرمينيا يعتنقون المسيحية في لحظة واحدة بعد تعمد الملك. كان التحول تدريجيا واحتاج إلى أجيال من التعليم والصراع والتفاوض.

المسيحية والهوية الأرمنية

أحدثت المسيحية تغييرا عميقا في اتجاه أرمينيا الثقافي. فقد أصبحت البلاد مرتبطة بالعالم المسيحي، وابتعدت دينيا عن الدولة الساسانية التي تبنت الزرادشتية أساسا ملكيا.

لكن المجتمع الأرمني لم يتحول ثقافيا إلى مجتمع يوناني أو روماني. بقيت أسماء الأسر ونظام النبلاء وعادات الفروسية والبلاط متأثرة بالتقاليد الإيرانية.

لم تمح المسيحية جميع الطبقات السابقة. فقد استمرت اللغة والعادات والأغاني والحكايات

والذاكرة المحلية، ودخل كثير منها في الأدب
المسيحي الجديد.

من منظري لم يكن اعتناق المسيحية ولادة للشعب
الأرمني، بل بداية مرحلة جديدة في تاريخ شعب
قديم تكون فوق قاعدة حورية أورارتية، ثم مر
بالتأثير الإيراني والهنستي.

تغير الدين الرسمي، لكن السكان لم يتغيروا. أحفاد
المجتمعات التي عاشت حول بحيرة وان وآراكس
وأعالي دجلة والفرات هم الذين دخلوا الكنائس
الجديدة وتعلموا العقيدة المسيحية.

مجمع نيقية

عقد مجمع نيقية سنة ثلاث مئة وخمس وعشرين
للميلاد لمناقشة قضايا العقيدة داخل الكنيسة
المسيحية.

ترتبط مشاركة أرمينيا في المجمع بأريستاكيس ابن
غريغوريوس المنور وخليفته. وتكشف هذه
المشاركة عن دخول الكنيسة الأرمنية المبكر في
الحياة المسيحية العامة.

كان ذلك دليلا على أن المسيحية في أرمينيا لم تعد
جماعات محلية متفرقة، بل أصبحت مؤسسة كنسية
تمتلك قيادة وتمثيلا واتصالا بالمراكز المسيحية
الأخرى.

ومع مرور الوقت بدأت الكنيسة الأرمنية تتجه نحو
مزيد من الاستقلال، خاصة مع تطور لغتها وكتابتها
وتعليمها.

تقسيم أرمينيا

استمر الصراع بين روما والدولة الساسانية رغم
اعتناق أرمينيا المسيحية. وفي سنة ثلاث مئة وسبع
وثمانين قسمت المملكة بين القوتين.

حصلت الدولة الساسانية على الجزء الأكبر من أرمينيا، بينما خضع الجزء الغربي للنفوذ الروماني.

كان التقسيم ضربة للوحدة السياسية، لكنه لم يقسم الذاكرة واللغة والدين بصورة كاملة. فقد وجد الأرمن أنفسهم تحت دولتين، لكن الكنيسة بدأت تؤدي دورا يتجاوز الحدود السياسية.

استمر الحكم الأرشاكوني في الجزء الشرقي مدة من الزمن تحت الإشراف الساساني، ثم ألغي العرش سنة أربع مئة وثمان وعشرين.

بعد سقوط الملكية أصبحت الكنيسة واحدة من أهم المؤسسات التي حافظت على تماسك المجتمع الأرمني. لم تعد البلاد تمتلك ملكا واحدا، لكن الأساقفة والأديرة والمدارس حافظت على التواصل الثقافي بين المناطق.

اختراع الأبجدية الأرمنية

كان اختراع الأبجدية الأرمنية من أهم نتائج المرحلة المسيحية. ارتبط هذا العمل بمسروب ماشتوتس وبالكاثوليكوس ساهاك.

عمل ماشتوتس في البلاط الأرشاكوني، ثم ترك الحياة الرسمية واتجه إلى التعليم والتبشير. وخلال تنقله أدرك أن نشر المسيحية بلغة أجنبية لا يكفي.

كان رجال الدين يقرؤون النصوص باليونانية أو السريانية ثم يشرحونها للأرمن. ولم يكن هذا الأسلوب قادراً على بناء تعليم ديني واسع أو ثقافة مكتوبة مستقلة.

في حدود سنة أربع مئة وأربع إلى سنة أربع مئة وست وضع ماشتوتس الأبجدية الأرمنية. وتوضح دراسة موسوعة إيرانكا عن مسروب ماشتوتس أن

هذا الابتكار لم يكن عملا لغويا بسيطا، بل كان مرتبطا بالكنيسة والتعليم والسلطة والهوية.

ساعد ساهاك وماشتوتس على إنشاء المدارس وتدريب المترجمين. وبدأت ترجمة الكتاب المقدس والنصوص الدينية من السريانية واليونانية إلى الأرمنية.

للمرة الأولى أصبحت اللغة التي يتحدث بها الشعب لغة كتاب وتعليم وصلوات وتاريخ. ولم يعد الأرمن مضطرين إلى الاعتماد الكامل على لغات القوى المحيطة.

الكتابة وبناء الذاكرة

منحت الأبجدية الأرمنية الشعب وسيلة لتسجيل تاريخه بصوته. قبلها كانت أخبار أرمينيا تصل غالبا عبر النصوص الآشورية والفارسية واليونانية والرومانية.

بعد اختراع الكتابة بدأ المؤلفون الأرمن بتدوين القصص والحروب وسير القديسين وتاريخ الأسر والممالك. ورغم ما دخل بعض هذه المؤلفات من روايات دينية وأسطورية فإنها حفظت مادة لا نجدها في المصادر الخارجية.

ساعدت الكتابة أيضا على توحيد اللغة الدينية بين المناطق. وأصبحت الكنائس والمدارس أماكن لنقل النصوص من جيل إلى آخر.

أرى أن الأبجدية حققت ما لم تستطع الحدود السياسية تحقيقه. فقد قسمت روما وفارس أرمينيا، لكن الكتابة جمعت الأرمن داخل فضاء ثقافي مشترك.

المسيحية والماضي القديم

حاول بعض رجال الكنيسة تقديم الديانة السابقة باعتبارها ضلّالاً يجب القضاء عليه. ومع ذلك احتفظوا من دون قصد بجزء من الماضي عندما كتبوا عن المعابد والآلهة والملوك والعادات.

ظهرت في الأدب الأرمني المسيحي مخلوقات وقصص ذات جذور قديمة. واستمرت حكايات التنانين والأرواح والجبال المقدسة والأبطال الذين يعودون إلى الحياة.

تكشف هذه القصص أن اعتناق المسيحية لم يمح ذاكرة الحورية والأورارتية والإيرانية. لقد أعاد تنظيمها ووضعها داخل تفسير مسيحي جديد.

أجد أن الهوية الأرمنية المسيحية لم تقم على إنكار الأرض القديمة، بل على إعادة قراءتها تاريخياً. تحولت المعابد إلى كنائس، وتحولت الأعياد إلى مناسبات مسيحية، واستمرت الأماكن المقدسة تحت أسماء جديدة.

من المملكة إلى الأمة الثقافية

عندما سقط العرش الأرشاكوني سنة أربع مئة وثمان وعشرين لم يسقط المجتمع الأرمني. فقد أصبحت الكنيسة واللغة والأبجدية والأدب عناصر قادرة على حماية الهوية بعد غياب الدولة.

كان هذا التحول بداية مرحلة أرمنية جديدة. لم تعد هوية البلاد مرتبطة بالملك وحده، بل أصبحت مرتبطة بالدين واللغة والذاكرة المكتوبة.

لم تلغ المسيحية الأصل الحوري الأورارتي الذي أنطلق منه في هذا الكتاب. فالأرمن الذين اعتنقوا الدين الجديد لم يأتوا من خارج المرتفعات، بل كانوا امتدادا لسكانها القدماء بعد قرون من التفاعل والتحول اللغوي والسياسي.

أرى أن المسيحية أعطت هذا المجتمع القديم إطاراً
جديداً للتعبير عن نفسه. أما الأبجدية فقد أعطته
الصوت الذي سجل به تاريخه وحافظ به على
وجوده.

خلاصة الفصل

بدأت المسيحية بالوصول إلى أرمينيا عبر الجنوب
السرياني والغرب الكبادوكي، ثم تحولت في عهد
تيريدات الثالث و غريغوريوس المنور إلى دين تتبناه
الدولة.

كان التاريخ التقليدي لهذا التحول سنة ثلاث مئة
وواحدة للميلاد، بينما يرجح عدد من الدراسات
الحديثة اكتمال التنظيم الرسمي في حدود سنة ثلاث
مئة وأربع عشرة.

لم يتحول جميع السكان دفعة واحدة. استمرت
المعتقدات القديمة، وقاومت بعض الأسر

والمؤسسات الدينية، واحتاجت المسيحية إلى وقت طويل حتى تنتشر في القرى والمناطق البعيدة.

غير الدين الجديد مكانة المعابد والكهنة ووجهة الدولة السياسية، لكنه لم يمح المجتمع القديم ولا جميع تقاليده.

بعد تقسيم أرمينيا وسقوط الملكية الأرشاكونية أصبحت الكنيسة مؤسسة أساسية في حماية وحدة الأرمن. ثم جاءت أبجدية ماشتوتس لتجعل اللغة الأرمنية لغة كتاب وأدب وتعليم.

بهذا انتقلت أرمينيا من مرحلة المملكة القديمة إلى مرحلة الأمة الثقافية المسيحية. بقيت الأرض نفسها، واستمر السكان أنفسهم، لكن طريقة التعبير عن الهوية تغيرت.

وفي الفصل السادس عشر أصل إلى الخلاصة الكبرى، وأجمع الأدلة الجغرافية والسكانية واللغوية

والدينية والأثرية التي بنيت عليها رؤيتي في أن الأرمن القدماء والهوريين ينتمون إلى مسار بشري وحضاري واحد، وأن أورارتو كانت الحلقة السياسية الكبرى التي نقلت هذا الميراث إلى أرمينيا التاريخية.

الفصل السادس عشر

الخلاصة الكبرى

أصول الأرمن من منظور حوري أورارتي
من أين بدأت الرحلة

بدأت هذا الكتاب بسؤال لم يكن بسيطاً. من أين جاء الأرمن القدماء، وما علاقتهم بالهوريين والأورارتيين الذين عاشوا في المرتفعات الأرمنية قبل ظهور اسم أرمينيا في المصادر المكتوبة.

لم أبدأ من الأساطير القومية، ولم أفترض أن شعباً كاملاً ظهر فجأة في لحظة واحدة. بدأت من الأرض، لأن الجغرافيا أكثر ثباتاً من أسماء الممالك والسلالات.

درست الجبال والأنهار والبحيرات والسهول والطرق القديمة. تابعت السكان الذين عاشوا حول بحيرة وان وبحيرة أورميا ووادي آراكس وأعلى

دجلة والفرات. ثم قارنت بين المراكز الحورية
والممالك التي عرفت باسم نايري والدولة الأورارتية
وأرمينيا التاريخية.

وصلت إلى أن فهم أصل الأرمن لا يتحقق بالبحث
عن هجرة واحدة أو قبيلة واحدة، بل بدراسة التراكم
البشري الطويل داخل المرتفعات.

كانت الأرض مأهولة قبل ظهور اسم أرمينيا بآلاف
السنين. وتعاقبت عليها جماعات وممالك متعددة،
لكن ذلك لم يعن تبدل السكان بالكامل في كل مرة
تبدل فيها اسم الدولة.

الأرض هي البداية
تشكل المرتفعات الأرمنية وحدة جغرافية متميزة.
تحيط بها السلاسل الجبلية، وتنتشر فيها البحيرات
الكبرى والأنهار التي تتجه نحو بلاد الرافدين
والقوقاز وإيران والأناضول.

جعلت هذه الطبيعة البلاد منطقة اتصال وحماية في الوقت نفسه. عبرتها الجيوش والتجارة والهجرات، لكنها حافظت على تجمعات سكانية محلية مستقرة داخل الوديان والمناطق الزراعية.

كانت بحيرة وان مركزا أساسيا في تاريخ أورارتو، لكنها لم تفقد أهميتها بعد سقوط المملكة. استمرت توشبا وظهرت حولها مراكز أرمنية، كما بقيت الطرق والقنوات والأراضي الزراعية مستخدمة.

أما وادي آراكس فاحتفظ بمكانته من العصر الأورارتي إلى العهد البيروندي والأرتاشيسي والأرشاكوني. نشأت فيه أرغيشتيخينيلي وأرمافير وأرتاشات وفاغارشابات.

يكشف استمرار هذه المراكز أن الدول الجديدة لم تبدأ من أرض خالية. لقد ورثت مواقع المدن والحصون والطرق والموارد التي استعملها السكان السابقون.

لهذا جعلت الجغرافيا دليلى الأول. فإذا استمر السكان في الأرض نفسها، واستمرت المدن والحقول وشبكات الري، فلا يمكن تفسير ظهور اسم سياسي جديد على أنه اختفاء كامل للشعب القديم.

الحوريون قاعدة سكانية قديمة

كان الحوريون من أقدم الشعوب المعروفة في مناطق واسعة من شمالي بلاد الرافدين والمرتفعات المحيطة بها. ظهرُوا في النصوص المسمارية، وانتشر وجودهم في نوزي وأوركيش ومناطق الخابور وأعالي دجلة والفرات والأناضول الشرقي.

لم يؤسس الحوريون دولة واحدة دائمة تضم جميع مناطقهم. عاشوا في مدن وممالك متعددة، وكانت ميثاني أشهر الكيانات السياسية التي ارتبطت بهم.

لكن سقوط ميتاني لم يؤد إلى اختفاء الحوريين. فقد استمر السكان داخل مدنهم وقراهم، ودخلوا في ممالك جديدة وخضعوا للأشوريين والحثيين وغيرهم.

أرى أن الخطأ يبدأ عندما نربط وجود الشعب ببقاء الدولة. يمكن أن تسقط المملكة ويستمر سكانها، كما يمكن أن تتغير لغة الإدارة ويبقى المجتمع المحلي في أرضه.

انتقلت جماعات حورية نحو مناطق المرتفعات، كما كانت عناصر حورية موجودة فيها أصلاً. وظهرت أسماءهم وآلهتهم ولغتهم في مساحة واسعة ارتبطت لاحقاً بأورارتو وأرمينيا.

لهذا أضع الحوريين في قاعدة التكوين السكاني والحضاري للمرتفعات الأرمنية. لا أقدمهم على أنهم جماعة اختفت قبل ظهور الأرمن، بل أراهم جزءاً من السكان الذين دخلوا في التكوين الأرمني اللاحق.

نايري والمرحلة الانتقالية

ظهر اسم نايري في النصوص الآشورية للدلالة على مجموعة من البلاد والممالك الواقعة في المرتفعات.

لم تكن نايري دولة موحدة منذ البداية، بل كانت فضاء سياسيا يضم ملوكا وأمراء ومجتمعات جبلية متعددة. واجهت هذه الممالك الحملات الآشورية ودافعت عن أراضيها وممراتها.

كانت النصوص الآشورية خارجية، وكتبت من وجهة نظر الملوك الذين هاجموا المنطقة. لذلك ركزت على الجزية والتمرد والمعارك، ولم تقدم لنا وصفا كاملا لهوية السكان ولغاتهم.

مع ذلك تكشف هذه النصوص أن المرتفعات كانت مأهولة ومنظمة سياسيا قبل قيام أورارتو. وتكشف

أيضا وجود قدرة على التحالف والمقاومة وبناء
الحصون.

أرى في نايري حلقة انتقالية بين عالم الممالك
الحرورية المحلية وبين الدولة الأورارتية المركزية.
فقد نشأت أورارتو من داخل هذا المجال الجغرافي
والبشري، ولم تأت دولة جاهزة من خارج
المرتفعات.

أورارتو وريثة عالم المرتفعات

ظهرت مملكة أورارتو في القرن التاسع قبل الميلاد،
وتمكنت من توحيد مناطق واسعة حول بحيرة وان.

سمت الدولة نفسها بياينيلي في عدد من نقوشها،
بينما استخدم الآشوريون اسم أورارتو. وهذا يعلمني
أن الدولة الواحدة قد تحمل أكثر من اسم حسب لغة
النص والجهة التي كتبت.

بنت أورارتو القلاع والمدن والمعابد والمخازن،
وشقت القنوات وطورت الزراعة ونظمت الجيش
والإدارة.

كانت اللغة الأورارتية قريبة من اللغة الحورية،
وتشكلان معا فرعاً لغوياً مستقلاً. وهذه الصلة
اللغوية من أقوى الأدلة على ارتباط أورارتو بالعالم
الحوري.

لكن أورارتو لم تكن دولة أحادية السكان. ضمت
مناطق وقبائل ومجتمعات متعددة، وربطتها بسلطة
ملكية مركزية.

أرى أن الدولة الأورارتية قدمت الإطار السياسي
الذي جمع سكان المرتفعات، كما ساعدت على
توحيد طرق الإدارة والعمران والعبادة.

عندما سقطت أورارتو في أواخر القرن السابع
وبداية القرن السادس قبل الميلاد لم تختف قنواتها

ومدنها وسكانها. سقط البلاط الملكي وانتهت الكتابة الرسمية باللغة الأورارتية، لكن الحياة استمرت.

وهنا أجد الحلقة الأساسية في أطروحتي. فالسقوط السياسي لا يساوي إبادة سكانية، وغياب النقوش الأورارتية لا يعني أن أصحابها خرجوا جميعا من البلاد.

من أورارتو إلى أرمينيا

ظهر اسم أرمينا في النقوش الأخمينية في القرن السادس قبل الميلاد. وظهر اسم الأرمن في المصادر اليونانية.

حدث ذلك بعد سقوط أورارتو بفترة قصيرة نسبيا. ولم تسجل المصادر القديمة هجرة ضخمة أزالت سكان المملكة السابقة وملأت البلاد بشعب جديد.

لذلك أرفض تفسير ظهور اسم أرمينيا باعتباره بداية
سكانية مطلقة. أراه بداية استعمال اسم سياسي
وإقليمي جديد فوق مجتمع قديم تعرض لتحويلات
لغوية وثقافية.

استمرت مراكز أورارتية داخل أرمينيا الأخمينية
والهلنستية. وبقيت صخرة وان مركزا مهما، ووضع
الأخمينيون نقشهم الملكي في موقع العاصمة
الأورارتية توشبا.

نشأت أرمافير قرب المجال العمراني
لأرغيشتيخينيلي. واستمر وادي أراكس مركزا
للحكم والزراعة. كما حافظت القلاع والقنوات على
وظائفها.

لا أقول إن أرمينيا كانت مجرد أورارتو باسم جديد.
فقد تغيرت اللغة والسلالة والنظام السياسي
والعلاقات الخارجية. لكنني أقول إن أرمينيا ورثت
أرض أورارتو وقسما كبيرا من سكانها ومراكزها
وخبراتها الحضارية.

الاستمرارية السكانية

لا أحتاج إلى افتراض بقاء كل أسرة في قربتها عبر القرون كي أقول إن هناك استمرارية سكانية. فقد شهدت المنطقة حروباً وهجرات ونقل سكان ومجاعات وتحركات قبلية.

لكن هذه التحركات لم تؤد إلى إفراغ المرتفعات وإعادة ملئها بالكامل. بقيت كتلة محلية كبيرة، واندفعت إليها جماعات جديدة، ثم اندمج الجميع خلال قرون طويلة.

بهذا المعنى أفهم تكوّن الشعب الأرمني. لم يتشكل من عنصر واحد نقي، بل من قاعدة محلية حورية أوراتية دخلت معها عناصر أخرى من الأناضول والقوقاز والعالم الإيراني.

كانت النتيجة شعبا جديدا في اسمه السياسي ولغته
الجامعة، لكنه عميق الجذور في سكان المرتفعات
القديمة.

عندما أقول إن الأرمن القدماء والهورييين شعب
واحد من منظوري، فأنا لا أقصد أن كل حوري كان
يسمى أرمنيا أو أنه تحدث اللغة الأرمنية المعروفة
لاحقا.

أقصد أن الحورييين لم يختفوا من التاريخ البشري،
بل استمر قسم كبير من ذريتهم داخل السكان الذين
تشكل منهم الأرمن القدماء.

إنها وحدة في المسار السكاني والحضاري، وليست
تطابقا بين جميع الأسماء واللغات في كل عصر.

مشكلة اللغة

تنتمي الحورية والأورارتية إلى أسرة لغوية واحدة،
بينما تنتمي الأرمنية إلى اللغات الهندية الأوروبية.

قد يستعمل البعض هذا الاختلاف لنفي أي صلة بين
الشعوب. لكن اللغة لا تطابق الأصل البيولوجي
بصورة كاملة.

يمكن لشعب أن يتبنى لغة جديدة بسبب السلطة أو
التجارة أو الاختلاط أو تغير مراكز النفوذ، من دون
أن يختفي سكانه القدامى.

حدثت تحولات لغوية كثيرة في التاريخ. تحدثت
شعوب بلاد الرافدين السومرية ثم الأكادية والآرامية
والعربية، ولم يكن كل تحول لغوي نتيجة إبادة كاملة
للسكان السابقين.

لذلك لا أقول إن اللغة الأرمنية تطورت مباشرة من
الحورية أو الأورارتية، لأن ذلك يخالف التصنيف
اللغوي المعروف. الأرمنية لغة هندية أوروبية

مستقلة، أما الحورية والأورارتية فتنتمیان إلى أسرة مختلفة.

لكن اختلاف اللغة لا يمنع استمرار السكان. أرجح أن اللغة الأرمنية انتشرت تدريجيا داخل مجتمع يضم قاعدة حورية أورارتية، ثم أصبحت لغة جامعة مع مرور الزمن.

كما دخلت إلى الأرمنية كلمات من اللغات الإيرانية والسرانية واليونانية وغيرها. وهذا يعكس تاريخ الاتصال الطويل، ولا يحول الأرمن إلى فرس أو يونانيين أو سريان.

الأسماء المتعددة

عرفت البلاد أسماء متعددة في المصادر. ظهرت سوبارتو وحوري وميتاني ونايري وأورارتو وبيانيلي وأرمينا وأرمينيا.

لا يجوز دمج هذه الأسماء كأنها تعني الشيء نفسه في كل عصر. لكل اسم سياقه الجغرافي والسياسي واللغوي.

لكن لا يجوز أيضا فصلها بجدران كاملة. فقد كانت الممالك تتداخل، واستمرت المجتمعات المحلية عبر تغير التسميات.

اسم أورارتو نفسه استمر بصيغة قريبة في التقليد الجغرافي المرتبط بأرارات. ويبين هذا الاستمرار أن أسماء الدول القديمة قد تبقى في أسماء الجبال والأقاليم حتى بعد زوال سلطتها.

أما اسم هاي الذي يستخدمه الأرمن لأنفسهم فيرتبط بتقاليد داخلية تختلف عن اسم أرمينيا الخارجي. ولا أجد غرابة في ذلك، فكثير من الشعوب تحمل اسما ذاتيا واسما أطلقه عليها الآخرون.

لا أبني نظريتي على تشابه لفظي وحده، بل على
اجتماع الجغرافيا والاستمرار السكاني والآثار
والمراكز والتقاليد.

استمرار العمران

تقدم القنوات الأورارتية دليلا مهما على
الاستمرارية. فقد احتاج بناؤها إلى معرفة دقيقة
بالأرض والمياه والهندسة.

استمرت بعض هذه القنوات مستخدمة بعد سقوط
المملكة، لأن السكان احتاجوا إليها للزراعة والحياة
اليومية.

كما استمرت القلاع والمدن أو أعيد استخدامها. وقد
بنيت بعض المراكز الجديدة قرب مواقع قديمة، لأن
الموقع الجغرافي الجيد يبقى مهما مهما تغيرت
الدولة.

ورثت أرمينيا طرقا تربط بحيرة وان بوادي آراكس
وأعالي دجلة والفرات. واستخدمت هذه الطرق في
التجارة والجيوش والاتصال بين الأقاليم.

أرى في استمرار العمران دليلا أقوى من الروايات
المتأخرة التي تتحدث عن أصول بعيدة من دون
إثبات. فالإنسان الذي يحافظ على القناة والحقل
والطريق هو غالبا من سكان الأرض أو من مجتمع
اندمج معهم وتعلم خبرتهم.

الديانة والذاكرة

عبد الحوريون آلهة مثل تيشوب وخيبات
وشاوشكا. وعبد الأورارتيون خالدي وتيشبا
وشيفيني وآلهة أخرى.

وفي أرمينيا ظهرت عبادة أرامازد وأناهيد وفاهاغن
وميهر وتير.

تغيرت الأسماء والأنظمة الدينية، لكن بعض الوظائف بقي متشابهة. استمرت مكانة إله العاصفة والمحارب، وإلهة الخصوبة والحماية، وإله الشمس والنور.

لا أقدم هذا التشابه على أنه إثبات أن كل إله أرمني هو نفسه إله حوري قديم. لكنني أراه جزءاً من انتقال الذاكرة الدينية بين الأجيال.

كانت الجبال والينابيع والأشجار والمواقع المرتفعة مقدسة قبل المسيحية، واستمرت قداسة بعض هذه الأماكن بعد اعتناق الدين الجديد.

عندما بنيت الكنائس قرب مواقع المعابد لم ينتقل السكان إلى أرض أخرى. تغير تفسير المقدس، بينما بقي المكان حاضراً في الذاكرة.

المسيحية لم تبدأ الشعب الأرمني

كان اعتناق المسيحية في بداية القرن الرابع تحولا عظيما، لكنه لم يكن بداية وجود الأرمن.

كان الشعب الأرمني موجودا قبل غريغوريوس المنور وتيريدات الثالث بقرون. وكانت له مملكته ولغته ونبلاؤه ومدنه وتقاليده.

أضافت المسيحية إطارا دينيا جديدا، وربطت أرمينيا بالعالم المسيحي، وساعدتها على التميز عن الدولة الساسانية.

ثم جاءت الأبجدية الأرمنية في بداية القرن الخامس، فأصبح للأرمن كتابهم وأدبهم وتاريخهم المكتوب بلغتهم.

حولت الكتابة الهوية الشفهية إلى ذاكرة مدونة. وأصبحت الكنيسة والمدارس قادرة على حفظ اللغة بعد تقسيم البلاد وسقوط المملكة الأرشاكونية.

لكن السكان الذين كتبوا بالأبجدية الجديدة كانوا أحفاد المجتمعات التي عاشت في المرتفعات عبر العصور السابقة. لم تصنع الأبجدية شعبا من العدم، بل منحت شعبا قديما وسيلة جديدة للتعبير عن نفسه.

التأثير الإيراني

لا يمكن كتابة تاريخ أرمينيا من دون الاعتراف بعمق التأثير الإيراني. فقد حمل ملوك ونبلاء كثيرون أسماء إيرانية، واستعملت ألقاب وتقاليد ملكية فرثية وفارسية.

دخلت كلمات إيرانية كثيرة إلى الأرمنية، وتأثرت الحياة الأرستقراطية بالصيد والفروسية والبلاط الإيراني.

حكم البيرونديون والأرتاشيسيون والأرشاكونيون ضمن عالم سياسي وثقافي متصل بإيران.

لكن التأثير الإيراني لا يعني أن الأرمن مجرد فرس
تغير اسمهم. فالعلاقة بين التأثير والهوية ليست
علاقة تطابق.

تبنت أرمينيا عناصر إيرانية وأعدت صياغتها
داخل مجتمعها. ثم اعتنقت المسيحية وابتعدت دينيا
عن الزرادشتية، مع استمرار العادات الاجتماعية
والأسماء الإيرانية.

هذا ما يؤكد رؤيتي في أن الهوية تتكون من طبقات.
فالقاعدة الحورية الأورارتية لم تمنع دخول التأثير
الإيراني، والتأثير الإيراني لم يمنع تشكل هوية
أرمنية مستقلة.

التأثير الهلنستي والروماني

دخلت الثقافة اليونانية إلى أرمينيا عبر الممالك
الهلنستية والتجارة والبلاط والمدن.

ظهرت اللغة اليونانية على نقود تيغران الكبير،
وأقيمت المسارح، واستقبل البلاط الفنانين والكتاب.
كما كتب أرتافازد أعمالا باللغة اليونانية.

لكن الثقافة الهلنستية تركزت في البلاط والمدن، ولم
تبلغ اللغات والعادات المحلية في القرى والجبال.

واجهت أرمينيا روما عسكريا، ثم دخلت معها في
تحالفات وصراعات طويلة. وحصل بعض ملوكها
على اعتراف روماني، بينما بقوا مرتبطين بالعالم
الإيراني.

عاشت أرمينيا بين قوتين، لكنها لم تكن مجرد أرض
بلا إرادة. استخدم ملوكها ونبلاؤها المنافسة بين
روما وإيران لحماية مجال من الاستقلال.

تيغران الكبير ذروة سياسية

مثّل عهد تيغران الكبير ذروة القوة الأرمنية القديمة.
وحّد أرمينيا الكبرى وسوفين، وتوسع إلى بلاد
الرافدين وسوريا، ودخل أنطاكية واتخذ لقب ملك
الملوك.

جمعت دولته بين مركز أرميني وأقاليم وشعوب
متعددة. واستعمل التقاليد الملكية الإيرانية والأدوات
الهلنستية لبناء سلطته.

لم تستمر إمبراطوريته الواسعة، لكنها أثبتت قدرة
أرمينيا على التحول إلى قوة كبرى.

بعد هزيمته أمام الرومان حافظ تيغران على قلب
المملكة. وهذا يوضح أن الدولة الأرمنية لم تكن
قائمة على الفتوحات الخارجية وحدها، بل امتلكت
قاعدة داخلية في المرتفعات.

حدود أطروحتي

لا أدعي أن جميع سكان أرمينيا كانوا حوريين فقط.
فقد دخلت في تكوينهم عناصر متعددة عبر آلاف
السنين.

ولا أقول إن الحورية والأرمنية لغة واحدة. فهما
تنتميان إلى أسرتين لغويتين مختلفتين.

ولا أقول إن مملكة أورارتو كانت دولة قومية
أرمنية بالمفهوم الحديث. فمفهوم القومية الحديثة لم
يكن موجودا في ذلك العصر.

كما لا أتعامل مع كل أسطورة أرمنية على أنها
وثيقة تاريخية. أميز بين الذاكرة الدينية والحكاية
القومية والدليل الأثري والنقش المعاصر.

لكنني أرفض أيضا الفكرة التي تقطع جميع الصلات
بين الحوريين والأورارتيين والأرمن، وتجعل كل
اسم شعبا منفصلا اختفى تماما قبل ظهور الاسم
التالي.

تقوم أطروحتي على الاستمرارية مع التحول. استمر السكان وتغيرت لغاتهم وأسماءهم ودولهم ودياناتهم.

هذا هو المعنى الذي أقصده عندما أقول إن الشعب الأرمني القديم والحوريين شعب واحد في الجذور السكانية والحضارية.

النتيجة التي وصلت إليها

وصلت إلى أن الأرمن تشكلوا داخل المرتفعات الأرمنية، لا خارجها فقط. وكانت القاعدة الحورية الأورارتية عنصرا أساسيا في هذا التكوين.

مثلت نايري مرحلة سياسية جمعت ممالك المرتفعات، ثم حولت أورارتو هذا المجال إلى دولة مركزية قوية.

بعد سقوط أورارتو استمر السكان والمراكز والقنوات والطرق. وظهر اسم أرمنيا داخل نظام سياسي جديد، بينما بدأت اللغة الأرمنية تنتشر بوصفها لغة جامعة.

أضاف العهد الأخميني والبيروندي طبقة إيرانية، وأضاف العصر الهلنستي طبقة يونانية، وبنيت السلالة الأرثوذكسية المملكة الأرمنية القوية.

وفي عهد تيغران الكبير وصلت الدولة إلى ذروتها. ثم جعلت السلالة الأرثوذكسية والمسيحية والأبجدية الهوية الأرمنية أكثر تماسكا وقدرة على البقاء بعد سقوط العرش.

لم يكن هذا المسار خطا مستقيما خاليا من الانقطاع. شهد حروبا وهجرات وانقسامات وتغيرات عميقة، لكنه لم يشهد اختفاء سكان المرتفعات في كل مرحلة.

كلمتي الأخيرة

كتبت هذا الكتاب لأنني أريد قراءة أصول الأرمن من داخل أرضهم القديمة، لا من خلال رواية تجعلهم جماعة ظهرت فجأة بعد اختفاء الحوريين والأورارتيين.

أرى أن الحوري لم يخرج من التاريخ عندما سقطت ميتاني، وأن الأورارتي لم يختف عندما سقطت توشبا، وأن سكان نايري لم يتبخروا عندما تغير اسم البلاد.

استمر هؤلاء داخل القرى والمدن والجبال والوديان، واختلطوا بغيرهم، وتغيرت لغتهم السياسية، ودخلوا في ممالك جديدة، ثم ظهر منهم المجتمع الأرمني القديم.

أصول الأرمن من منظوري حورية أورارتية في قاعدتها، أرمنية في شكلها التاريخي اللاحق،

ومفتوحة على التأثيرات الإيرانية والأناضولية
والقوقازية والهنستية.

لا أبحث عن النقاء، لأن النقاء العرقي وهم لا يصنع
التاريخ. أبحث عن الاستمرارية، والاستمرارية لا
تعني الجمود، بل تعني قدرة المجتمع على التغير من
دون أن يفقد صلته بالأرض.

لقد تغيرت أسماء الملوك والآلهة واللغات الرسمية.
سقطت ميتاني وأورارتو والممالك اليروندية
والأرتاشيسية والأرشاكونية. لكن الإنسان بقي في
المرتفعات، وبقيت ذاكرته في الماء والحجر
والمدينة والطريق واللغة والحكاية.

ومن هنا أقول إن تاريخ الأرمن لا يبدأ مع أول مرة
كتب فيها الفرس اسم أرمينا، بل يمتد إلى العالم
الحوري وبلاد نايري ومملكة أورارتو.

بهذه الرؤية أختتم كتابي.

إن الشعب الأرمني القديم لم يولد فوق أنقاض شعب
اختفى، بل خرج من تطور سكان المرتفعات أنفسهم.
وكان الحوريون والأورارتيون من أهم أجداده
الحضاريين والبشريين.

هذا هو جوهر أصول الأرمن من منظور حوري
أورارتي.

وهذه هي النتيجة التي وصلت إليها بعد تتبع الأرض
والسكان واللغات والممالك والديانات من أقدم
العصور حتى بداية المرحلة الأرمنية المسيحية.

الباحث والمؤرخ أمير أبو حديد